الروائيون

أغلب الروائيين الذين حصلوا على جائزة نوبل فى الأدب بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٩٢ ، قامت شهرتهم على الإبداع الروائى وحده ، وفى المقام الأول ، قبل أى أنشطة إبداعية أخرى ، ورغم أن أغلب كتاب الرواية فى عصرنا يمارسون أنواعًا أخرى من الكتابة النثرية إلى جانب الرواية ، إلا أن النشاط الغالب على كل من نجيب محفوظ ، وماركيث ، وجولدنج ، ونادين جورديمر ، وكلود سيمون هو الرواية فى المقام الأول .

ويكاد إلياس كانيتى يستثنى من هذه القاعدة ، فرواياته أقل من كتبه النثرية الأخرى ، حيث يعتبر النقاد ، على سبيل المثال ، أن كتابه عن كافكا ، يعد نموذجًا للنثر النقدى البالغ الرقى والجدية ، كما أن كانيتى كتب كثيرًا فى أدب الرحلات ، ومقالات فلسفية وأبحاث أدبية إلى جانب إبداعه الروائى ، وكانيتى مثل أغلب الروائيين اليهود فى العصر الحديث مهموم فى المقام الأول ، بسيرته الذاتية ، فراح ينشرها فى روايات عديدة ، وهذه السمة موجودة لدى كتاب يهود بشكل واضح ، مثل فيليب روث ، واسحاق سنجر ، وكثيرين غيرهما ، ولذا فمن السهل جدًا أن نتتبع سيرة حياة الكاتب من خلال رواياته ، فهو مولود فى بلغاريا فى الخامس من يوليو عام ١٩٠٥ ، فى مدينة روستشوك ، من أسرة سفاردية يهودية ، تتكلم اللغة الأسبانية منذ القرن الخامس عشر ، وأجداد هذه الأسرة سبق أن هربت من إسطنبول بتركيا فى القرن ١٥ .

وقد وجد إلياس نفسه فى مدينة لندن وهو فى سن السادسة ، حيث تعلم اللغتين الإنجليزيةوالفرنسية ، وبعد عامين توجهت الأسرة إلى النمسا حيث درس

اللغة الألمانية التى استخدمها أبواه فى حياتهما اليومية كلغة تعبير أولى ، ثم رحلت الأسرة مرة أخرى ، ووجد إلياس نفسه مع أخويه : نسيم ، وجورج فى زيورخ بسويسرا ، وفى الفترة بين عامى ١٩١٦ و ١٩٢١ دخل مدرسة الليسيه ، ثم أرسلته أمه إلى فرانكفورت لتكملة تعليمه فى الجامعة ، وانتقل بين مدن عديدة درس فيها الكيمياء ، ومع ذلك وجد نفسه يقترب من الأدب والسياسة ، فاشترك فى مظاهرات الطلبة عام ١٩٢٧ فى فيينا ، ثم اختار الاستقرار فى برلين حيث إلتقى بأدباء من طراز بابل ، وبريخت ، وقبل أن يعود مرة أخرى إلى فيينا ، كانت قد تخمرت فى ذهنه سلسلة من الروايات ، فبدأ يكتب روايته الأولى « الكوميديا الإنسانية المجنونة » عام ١٩٣٠ ، ثم راح يقرأ شوامخ الأدب مثل « الأوديسا » و « الأحمر والأسود » .. ونشر مسرحيته الأولى « سيارة الجن » عام ١٩٣٣ .

ولم يشأ كانيتى أن يترك فيينا التى راحت تشهد تصاعد الحركة النازية فى الثلاثينات ، وفى عام ١٩٣٨ نشر رواية « ليلة البللور » ، ثم رحل إلى باريس ، وصل إلى لندن فى يناير ١٩٣٩ ، حيث بدأ العمل وتفرغ للأدب ، وخلال سنوات الإبداع سافر إلى أماكن عديدة استلهم منها أحداث رواياته ، ومن بين تلك الأماكن مراكش وإيطاليا واليونان ، وكانت لغة الكتابة المفضلة عنده هى الألمانية والإنجليزية ، ورغم كتاباته المتعددة إلا أن النقاد يعتبرون أن سيرته الذاتية التى بدأ فى نشرها ابتداء منذ عام ١٩٧٧ ونشر جزءا منها فى عام ١٩٩٠ هى أفضل أعماله .

جاء فى حيثيات منح كانيتى جائزة نوبل عام ١٩٨١ : « لثرائه الروحى وكثافة تعبيره التى جعلت من كانيتى واحدًا من الكتاب الأكثر وجدانية فى عصرنا ، رجل يتسم الوصف لديه بصلابة ، يدفع للتفكير فى كبار رجال الإنسانية مثل « لابروبير » ، و « ليتستبرج » .

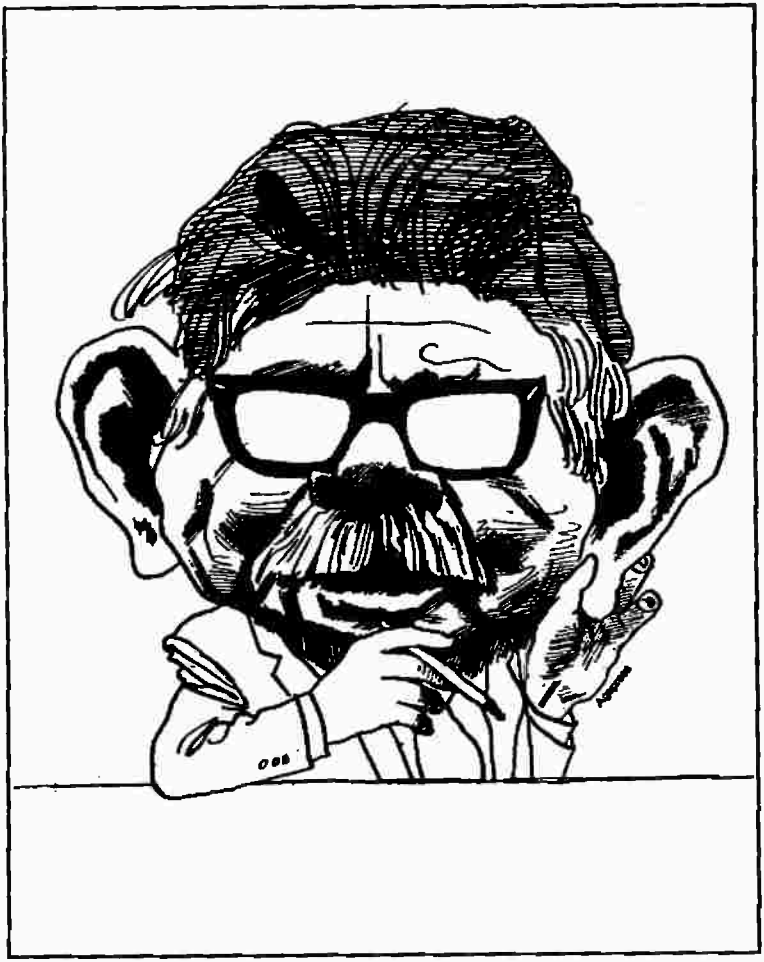

إلياس كانيتى – ١٩٨١

أما أهم أعمال كانيتى الأخرى فهناك « الكم والقدرة » عام ١٩٥٨ ، و « المحاكمة الأخرى » ، و « أرض الإنسان » ، و « قصة شباب » ، و « دروب مراكش » عام ١٩٨٠ ، و « قصة حياة » ، و « وعى الكلمات » ، ثم كتابه الأخير « قلب الساعاتى السرى » .

وكما أشرنا فإن أغلب أعمال إلياس كانيتى بمثابة سيرة ذاتية متجمعة فى صفحات متفرقة بين الكتب ، فى كتابة «قصة شباب» يتحدث عن العلاقة بين أبويه قائلاً : كان أبى موسيقيا يعشق البيانو ، أما أمى فكانت تغنى على ألحان شوبيرت التى يعزفها ، كم كنت محظوظا أن أولد بين أبوين شابين عاشقين » .

وإذا كان الأب قد مات وإلياس لا يزال طفلاً ، فإن الكاتب مدين للكثير إلى أمه التى كانت تهوى الآداب والفنون ، فهى التى زرعت فيه أولى بذور الكتابة ، وجعلت قلبه ينبض بالحب لأول مرة . وفى أول علاقة له بالإبداع بدأ يجد أسلوبه يجمع بين أسلوب سرفانتس وشخصيته الشهيرة دون كيشوت ، كما تأثر بكتابات كافكا الذى يعتبره أحد الأدباء الذين عبروا بشكل جيد عن عصرهم ، وقد كان هذا الإعجاب سببًا فى أن يقدم دراسة أدبية رائعة عن رواية « المحاكمة » .

وفى نفس الكتاب يقول كانيتى : « أقمت عدة سنوات فى سرير أبى ، كان شىء خطير أن أترك أمى وحدها ، لا أعرف كيف أمكننى أن أؤدى دور الملاك الحارس ، كانت كثيرة البكاء ، وكم سمعتها وهى تبكى ، لم تكن تتكلم ، وكم بدت هذه المشاهد صامتة ، أروح أضمها إلىّ بقوة كأنها تود أن تقفز من النافذة ، لم يكن يمكنها أن تفعل ذلك لأنها ستجرنى معها ، ومن داخل قوتها ، كنت أحس بجسدها ينتفض ، والتوتر يملؤها ، وتضع رأسها على كتفى وتنتحب » .

كما تحدث كانيتى عن مدرسته فى مدينة مانشستر ، وعن علاقته بعلم الجغرافيا ، وكيف كان يراه مادة ثقيلة الظل للغاية .

فى كتابه « الكم والقوة » تناول كانيتى رؤيا العالم الأنثربولوجى جيمس فريزر فى كتابه : « الغصن الذهبى » ، حيث بدأ يمزج علم الاجتماع بالانثربولوجيا والتاريخ فى إطار دراسة مقارنة للأديان ، وذلك من خلال التركيز على الأمراض المتعددة التى أصابت الأمراء الذين حكموا أوروبا ردحًا طويلاً من الزمن .

وفى كتاب لكانيتى يحمل عنوان « إقليم ميونخ » باللغة الألمانية – « أرض الإنسان » حسب ترجمته الفرنسية – يروى الكاتب فصولاً أخرى من حياته الخاصة : « أى خطيئة ارتكبتها الحيوانات ؟ ولماذا حكم على الحيوانات بالموت ؟ ويرى الكاتب أن الحيوانات أصدقاء للبشر فيروح يناجيهم : « أيها الأصدقاء القساة الميتون ، انتم تناضلون وتتقاتلون وتتجمعون ، وتهربون مجتمعين ، أو فرادى تحسون أنكم مطاردون ، وتتركون وراءكم حياة خادعة وحيوانات لقيطة » .

وهذا الكتاب يتضمن اليوميات التى دونها كانيتى بين عامى ١٩٤٢ و١٩٧٢ ، ويقول : إنها تنتمى لرجل كان يظل يقرأ حتى يحس أن رموش عينيه قد أنهكها التعب ، وأن الكتب بدأت تتحرك أمامه ، والكتاب بمثابة كتابات متناقضة ومتباينة تعكس أفكار الكاتب السياسية والاجتماعية والفلسفية التى مر بها طوال ثلاثين عامًا ، فنجد ظاهرة عن الموت ، وأخرى عن الحيوانات ، كما أشرنا ، أو عن كاتب مثل كافكا « فى داخل كل وجود ، يمكن أن نكتشف الموتى الذين خلفهم الأحياء » .

وهناك كتاب آخر من بين كتب السيرة الذاتية لحياة إلياس كانيتى ، نشره أخيرًا تحت عنوان « ألعاب الاعتبار ، قصة حياة ١٩٣١– ١٩٣٧ » ، يتناول حياته من وجهة نظر أخرى خلال ست سنوات ، كان خلالها كانيتى فى العشرينات من العمر ، انتهى لتوه من كتابه « الإعدام حرقا » ويبحث عن ناشر . إنه روايته التى حصل من أجلها على جائزة نوبل ، وهى التى جذبت إليه الأنظار .

ويعتبر كتاب « ألعاب الاعتبار » بمثابة شهادة على مدينة فيينا فى تلك السنوات ، كانت المدينة تعتبر فى تلك الآونة بمثابة عاصمة ثقافية لأوروبا ، ففى المقاهى الأدبية كان يلتقى رجال من طراز ستيفان زفايج وهرمان بروخ ، وتوماس منّ ، وروبرت موزيل . والشاعرة ألما مالر زوجة الموسيقار المعروف مالر ، ومن المعروف أن كل هذه الأسماء من اليهود عدا توماس من : « يجب أن نقدم إلى هذه المدينة حيث كان الازدحام يسود المقاهى ، وتتضحم الحوارات بين المريدين » ، ويقول كانيتى « إن الناس كانوا يتكلمون عن كل شىء ، كان ذلك عصرًا أنتج أشياء كثيرة . وكنا نحس أن هناك كارثة قادمة فى الجو » .

وقد اخترنا هنا أن نترجم فقرة من هذا الكتاب عن طبعته الفرنسية ، حيث قال عن الروائى روبرت موزيل : « كان ، كما يبدو عليه ، يعيش كى يهاجم ويدافع ، نجح بدوره أن يحميه ، يمكن أن نقارنه بمحارب ، كان هناك شىء يعزله عن العالم ، يهرب من النصوص المؤثرة ، وتبدو له كل الضرورات معلقة ، وهناك حوله يحس بأن هناك حدودًا بين الأشياء ، تبدو طبيعته أسرية ، فأصبحت لحمًا ودمًا لروحه ، كان كاتبًا مصنوعًا لعمله ، يرفض أن يكون جزءا من حديث أقل أهمية ، وإذا وجد نفسه بين الثرثارين الذين تزدحم بهم مقاهى فيينا ، فإنه ينسحب ويظل صامتًا لا يحس أنه فى منزله وأنه يتصرف على سجيته إلا إذا كان وسط علماء » .

كما تحدث كانيتى عن الأدب كارل كراوس الذى كان يعتبره بمثابة أبيه الروحى ، فهو رجل المقاومة : « لقد تحمل الحرب الأهلية فى شوارع فيينا » ، كما اختار أن يفرد صفحات أخرى طويلة عن ألما مالر ، ويكتب عن هرمان بروخ الروائى الألمانى قائلاً : « كان يسمعنى أتكلم . ويفكر ويظل صامتًا ، راح يترك الأشياء تنضج فى داخلى ... فى ذلك العصر كان يمكنه أن يدمر فى ساعة ما كنت أعتبره هدف حياتى » ، ويقول كانيتى أيضا : (قال لى يومًا بكل رقة :

لقد فتحت بابًا وعليك أن تدخل منه ، لا ترتكن على أى فكرة سوى على نوع الأشياء التى تتناسب معك وحدك » .

أما آخر كتاب لكانيتى فهو « قلب الساعاتى السرى » فيعود فيه للحديث عن سنوات طفولته المبكرة مرة أخرى ، فقد أعلنت الحرب العالمية الأولى وكانيتى فى التاسعة من عمره ، ووجد الصغير نفسه بين هويات عديدة ينتمى إليها ، الثقافة النمساوية ، والألمانية والإنجليزية ، كان إلياس أصغر إخوته يهوى ترنيم الأغنيات باللغة الإنجليزية ، كان يحس أنه أوروبى وليس مواطنًا لدولة دون أخرى ، ولذا فإنه فى حالة تناقض حين رأى أوروبا تحارب بعضها ، فى عام ١٩١٧ رأى بعض الجرحى الألمان فاهتز وجدانه ، كما راح يغنى على شاطئ بحيرة ليمان السويسرية .

كان كانيتى يعيش حالة من التحول والصيرورة ، وقد وصلت مذكرات الكاتب فى هذا الجزء حتى عام ١٩٢٧ ، وهو العام الذى وصل فيه هتلر إلى مقعد الحكم ، وكما لاحظنا فإن كانيتى يقوم بانتقاء لحظات معينة من ماضيه ، هذه اللحظات على هواه وحده ، كما أنه يقوم بانتقاء أشخاص بعينهم للحديث عنهم ، وكما كتب كلود روا فى مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور » — ١٢ أكتوبر ١٩٨٩— ، فإننا عندما نقرأ الأجزاء الثلاثة من حياة كانيتى ، فإننا نحس أن كتبه قد ولدت مما حدث له ، وليس فقط من حصاد المكتبات ، فكانيتى حكمة حساسة ، وثقافة فى خدمة الحياة ، وموهبة مميزة ، إنه قادر أن يكشف نفسه للآخرين » .

الجدير بالذكر أن جائزة نوبل لم تكن أول جائزة حصل عليها الكاتب فى حياته ، فقد حصل على أعلى جائزة فى الأدب الألمانى عام ١٩٧٢ — جائزة بسوشنر — ثم حصل على جائزة ألمانية أخرى عام ١٩٧٥ هى جائزة الأدبية نيللى ساخس ، وبعد ذلك بعامين حصل على جائزة جوتفريد كيللر .

ليس صحيحًا بالمرة أن جائزة نوبل ، قد رفعت قدرها حين منحت لأسماء بعض الكتاب المغمورين ، والأقل قيمة من كتاب كثيرين عديدين كان عليهم أن يحصلوا عليها ، فقد انخفضت قيمة الجائزة وشعبيتها فى السبعينات عندما منحت لأدباء سرعان ما راحوا فى طى النسيان .

ولأكثر من ثمان سنوات فإن أكثر الأدباء الذين حصلوا عليها ، بدوا كأنهم بعثوا من القبور ، ولا أحد يذكر أسماءهم الآن بالمرة ، ولنذكر على سبيل المثال الأدباء الذين حصلوا عليها بالترتيب بين عامى ١٩٧٣ و١٩٨١ ، وهم الأسترالى باتريك وايت ، والسويديان ايفند جونسون وهارى مارتينسون و(١٩٧٤) ، ثم الإيطالى أوجينيو مونتالى ، والأمريكى صول بيللو ، والأسبانى فنسته الكسندر ، وإسحاق باسفتش سنجر الأمريكى ، ثم اليونانى اودسيوس أليتس ، والبولندى ميلوش ، والبريطانى كانيتى .

إذن ، فعندما جاءت الجائزة لماركيث حدث لها انتعاش ، وأحس الناس أن الجائزة قد راحت لمن يستحقها منذ هاينريش بُلْ عام ١٩٧٢ ، وحدثت ظاهرة لم تهدأ لسنوات طويلة ، منها أن فوز ماركيث بالجائزة قد أيقظ النيام فى أكاديمية استوكهولم بالفعل ، كما نبه العالم إلى أهمية الرواية بشكل عام فى أمريكا اللاتينية ، باعتبار أن أفضل الروايات المكتوبة فى السنوات الأخيرة قد جاءت من هناك ، وساعد هذا على إلقاء الضوء على مجموعة كبيرة من أدباء أمريكا اللاتينية وعلى أجيال بكاملها دبت فيها الصحوة ، ورغم أن أمريكا اللاتينية قد سبق أن نالت الجائزة أكثر من مرة ، إلا أن فوز ماركيث قد أحدث ثورة خاصة فى عالم الرواية .

عندما حصل ماركيث على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢ ، كان يعيش خارج بلاده منذ سبعة عشر عامًا ، ولم يشأ الكاتب مثل الكثيرين من أبناء أمريكا اللاتينية أن يتجه إلى أوروبا ، ليقيم هناك ، فقد فعل ذلك أدباء

جابریل جارثیا مارکیث – ۱۹۸۲

كثيرون تصادموا مباشرة مع السلطات السياسية فى بلادهم ، ومنهم على سبيل المثال خوليو كورتثار الذى عاش فى باريس منذ عام ١٩٦١ وحتى وفاته عام ١٩٨٧ .

ولعل الدراسة التى أجرتها مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور » – ١٩ مايو ١٩٨٠ – تعطينا صورة حول علاقة النظم السياسية بالأدب فى أمريكا اللاتينية ، فمنذ سنوات طويلة والديكتاتور هو الذى يسود ، ورأيه هو المسيطر ، وهذا الديكتاتور ليس فقط حاكما مستبدًا ، بل هو يعيش لنزواته الخاصة ، ويتعامل مع الأدب بكل حساسية ، فهو يراه ينشر الأفكار التى لا تتناسب مع سياسته فى الحكم ، لدرجة دفعت بعض السلطات العسكرية إلى منع كتب مثل « ذات الرداء الأحمر » و « الأحمر والأسود » و « فرسان المنزل الأحمر » و « الزنبقة الحمراء » ، لمجرد أن كلمة « أحمر » فى عناوينها رغم أنها بعيدة تمامًا عن كل أيديولوجيات .

فى مثل هذه الأجواء نشأ جابرييل جارثيا ماركيث الذى ولد فى مدينة أركاتا بكولومبيا فى عام ١٩٢٨ ، من أبوين تحابا وتزوجا رغما عن إرادة الأهل ، ويتحدث جابرييل عن أبيه اليجيو جارثيا : « كان عامل تلغراف فى أركاتا ، فى ذلك الزمن الذى غزت فيه أشجار الموز ساحل المحيط الأطلنطى لكولومبيا ، ويحلم الناس أن يصنعوا ثروة من الذهب الأخضر ، هناك تسمع كل اللغات ، فى هذه البلاد يعمل الرجال صباحًا ويرقصون فى المساء ، وهناك تعرف أبى على أمى لويزا سانتياجا ، ابنة الكولونيل ماركيث إيجوران الذى أصيب فى معركة الألف يوم ، تلك الحرب الأهلية التى استمرت بين عامى ١٨٩٩ و١٩٠٢ ، تزوجا رغمًا عن أنوف أجدادى الذين كانوا يعيشون فى ربوهات ، ولدت فى أركاتا ، رحلا بعد الولادة وأقاما حانوتا فى يارانكو يللا وأعطياني لجدىّ كى يقوما بتربيتى » .

وفى أحاديثه يقول ماركيث إن الموت كان يطارد أفراد أسرته دائما وأنه عاش مع أجداده ثمانى سنوات أشبه بيتيم ، لا يعرف أين أبواه اللذين تكلم عنهما

فى أولى رواياته المنشورة عام ١٩٥٥ بعنوان « غرباء الموت » ، والذى يتكلم فيها عن أمه قائلاً : « عادت ذات يوم ، سمعت صفير القطار الذى يقلها ، رأيتها كانت جميلة ، ترتدى قبعة من القش ورداء فاخرًا ، أعجبتنى كثيرًا ، لكن لم أحبها بمثل القدر الذى أحب به جدى ، عانقتنى ، لن أنسى عطرها » .

وشب الطفل وأصبح غلامًا فى الثالث عشر ، أتقن الرسم لكنه كان يحصل على أقل الدرجات فى حصص الإملاء ، ثم راح يسافر فوق سفينة خارج كولومبيا فى رحلات تستغرق من ثمانية أيام إلى ستة عشر يومًا ، وعندما ترسو السفينة يتجمع الطلبة يغنون ويرقصون ، وبعد الظهيرة يجرون مثل الجياد ، ويقفون على المحطات يبيعون البطاطس والآيس كريم ، وهى الأجواء التى صورها ماركيث فى روايته « خريف البطريرك » .

وفى عام ١٩٤٦ أنهى ماركيث دراسته الثانوية ، والتحق بكلية الحقوق بمدينة بوجوتا : « كنت أفضل دراسة الهندسة الميكانيكية ، لا يهم لكننى اخترت المهنة التى تجعلنى حرًا بعد الظهر ، وتسمح لى أن أكسب حياتى ، وفى الجامعة تعرفت على كاميلو نورس أحد الثوار فى البلاد » .

وفى عام ١٩٤٧ كتب ماركيث أولى أقاصيصه بعنوان « جاءت كتابتها على سبيل التحدى ، كى أرد بها على الكاتب الروائى أدواردز ثالاميا بوردا الذى أكد أن أبناء الجيل الجديد لا يحملون أى موهبة ، وقد اعترف بوردا بخطئه فى كتاب نشره بعد ذلك بخمس سنوات » .

عاد جابرييل إلى أبويه فى عام ١٩٤٨ ، بعد أن أغلقت الجامعة أبوابها لفترة طويلة بسبب مقتل الزعيم الليبرالى خورخه خيتان ، الذى فتح مصرعه صفحة من العنف الدامى فى البلاد ، وظل جابرييل فى صحبة أبويه إلى أن عاد عام ١٩٥٠ إلى أركاتا مع أمه ، كى يبيعا منزل العائلة وبدأ يمارس العمل الصحفى ، ثم بدأ يكتب أولى رواياته « غرباء الموز » التى تحدث عنها فيما بعد قائلاً : « روائى

يعيش دائمًا فى ظروف متشابهة ، يعمل فى الصباح ، وفى المساء يتجه إلى حيث أماكن التسلية ، كانت عاهرات المدينة يتحاورن مع هذا الرجل عندما يعود إلى منزله القريب من البحر ، وهو يحمل معه كتب كافكا وجويس وهيمنجواى وفرجينيا وولف » .

فى عام ١٩٥٥ أرسلته صحيفة « سبكتادور » إلى جينيف كى يحضر مؤتمر الأربعة الكبار ، ثم إلى روما وباريس وبعض المدن الأوربية ، لم يكن الشاب يعرف أية لغة غير الأسبانية ، وبعد أن عاد إلى بلاده أغلقت الصحيفة أبوابها ، فوجد نفسه فى فراغ مما دفعه إلى كتابة روايته « ليس لدى الكولونيل من يكاتبه » ، الذى يقول عنها : « استلهمتها من قصة جدى الذى قضى شيخوخته منتظرًا معاشه كجندى ، قالت له جدتى : « المعاش الذى ستأخذه يخص أبناءك » ، ولم يصل المعاش قط ، ألهمتنى هذه الحكاية موضوع الرواية ، وإبان فترات الطعام ، كنت أخرج وريقة أو اثنتين فوق المائدة حيث أتناول طعامى فى محل بركن الشارع ، كان لدىّ الوقت كى أرسل التحذيرات إلى أصدقائى ، وأن أعيش بدورى مغامرة جدى ، كل صباح أصعد إلى منزلى أربع درجات فأربع درجات ، أصعد وأنا أضيف صفحة إلى روايتى ، لا توجد رسائل بالنسبة لى ، كنت أروى بهذا المعيار ، كنت أفهم أن الرسالة لا تصل قط وأن الأصدقاء لا يردون ، ومن هنا استقيت عنوان روايتى » .

فى نفس العام طبعت رواية « غرباء الموز » ثلاثين ألف نسخة مما دفع بالكاتب أن يقدم رواية ثالثة هى « ساعة نحس » ، والتى يروى عن ظروف تأليفها بأنه استلهمها من الإعلانات المنتشرة فى الشوارع ، وفى عام ١٩٥٧ حضر مهرجان الشباب بموسكو ، وحصلت هذه الرواية على جائزة الأدب الكولومبى وقيمتها ثلاثة آلاف دولار ، وفى عام ١٩٦٢ قدم مجموعة قصصية جديدة بعنوان « جنازات الجدة » .

يقول ماركيث عن روايته « مائة عام من العزلة » : « كتبت روايتى فى المكسيك بين عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٨ ، زمن صعب لأننا لم نكن نمتلك نقودًا ، ولهذا كنت أكتب بسرعة القطار ، وعندما كنت أرى أن روايتى تجرى ولا يوقفها أحد ، كنت أقول لزوجتى مرسيدس : « سوف تشتغلين بأعمال البيت » ، كنت أشعر أننى الرجل الأكثر اجتماعية وحرارة فى كل العالم ، ورغم هذا بقيت ثمانية عشر شهرًا محبوسًا فى غرفتى ، أو بالأحرى لم أخرج سوى مرة ، أبلغتنى زوجتى أننا بلغنا حالة التقشف ، وذهبت بسيارتى كى آتى بنقود تكفى ثلاثة أشهر .

« وبدأت أستكمل كتابة الرواية ، أكملت نصف النص عندما استدعى المالك مرسيدس ، يجب أن تدفعوا لى ثلاثة أشهر ، طرقت مرسيدس بيدها على صدرها وقالت : « كم يلزمك من وقت كى تنهى هذا الكتاب » « ستة أشهر » ، وأنهى الرواية كى يسدد ديونه ، هذه الرواية التى جعلت منه كاتبًا ثريًا ، فقد أرسل النسخة إلى الناشر بالأرجنتين الذى قام بوزنها كأنه يزن قطعة من اللحم ، وبيع من الرواية ثمانية آلاف نسخة فى بيونس إيريس فى ثلاثة أيام ، وطبع منها حتى الآن ، ثلاثة ملايين نسخة فقط من الطبعة الأسبانية ، ومن المعروف أنها ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة منها مرتين باللغة العربية ، وحول هذا النجاح يتحدث : « قيل لى إن كتابى له نفوذ غريب ، فعندما تقرؤه تشعر بالرغبة فى الحديث عنه ، قدمته إلى أصدقائى كى يخبرونى برأيهم ، وهؤلاء الذين يشترونه ، أعطيتهم إياه وأنا أتكلم ، بعد أن ذاعت شهرته أهديته إلى إحدى صديقاتى التى تقارب الخمسين بمناسبة رأس السنة قائلاً : « هذا أفضل عام فى حياتى . وحدثتها عن « مائة عام من العزلة » .

« ما رأيك فى الشهرة ؟

« إنها رائعة للغاية . لكنها أيضًا لها متاعبها ، على سبيل المثال ، فقد جاءنى هاتف يسألنى : سيدى نحن فى هدنة ولكن ليس من أجلك » هذا شىء رائع ، فالصعوبات التى نعانى منها فى حياتنا تجعلنا نحكى كثيرًا عن قصص الحركة ، فى الواقع فإن شاغلى الأكبر والوحيد هو الكتابة ، فأنا أنهمك من التاسعة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر ، وبقية وقتى أقضيه مع أصدقائى وأولادى .

وقد دفعه هذا النجاح إلى العمل المتواصل . فقدم روايات أخرى من أهمها « وقائع موت معلن عنه » ، وعقب فوزه بجائزة نوبل نشر روايتين هما « الحب فى زمن الكوليرا » و « الجنرال فى متاهته » .

تدور أغلب أحداث رواياته فى نفس المكان « ماكاندو » . ففى رواية « غرباء الموز » نرى ثلاثة أشخاص يحضرون جنازة تخص الأسرة : كولونيل سابق يعيش حياته الخاصة ، وابنته إيزابيلا التى تبناها قبل عشر سنوات ، والكولونيل رجل توقره القرية كلها : « فى أول مرة رأيت فيها جثة كان اليوم أربعاء ، شعرت أننى فى يوم مزيف . لماذا لا أذهب إلى المدرسة » ، فى القرية هناك طبيب وطاحونة ، وهناك صيدلية ومستشفى ، وهناك شابة أشبه بأمى » ثم يتحدث ماركيث حول أمه وأبيه اللذين تركا ابنهما ورحلا إلى مدينة أخرى يمارسان التجارة ويكسبان النقود .

وفى « مائة عام من العزلة » تدور الأحداث أيضًا فى ماكاندو . هناك تعيش عائلة بيوبندا التى أسست هذا المكان مع عائلات أخرى ، ولكل شخص من هذه العائلة عالمه الخاص . بأحلامه وأساطيره وملاهيه ومآسيه ووقائعه وعلاقاته ، وله بدايته ، وله أيضا نهايته ، لقد بدأت المدينة من العدم ، وسرعان ما تحولت إلى واحة عجيبة فى تلك الغابة الأقرب إلى حديقة . بلدة بدائية بعيدة عن العالم ،

وبها الطيور التى تغنى حيث لا يوجد الموت والجريمة والقضاء ، والزوار الوحيدون هم قبائل الغجر ، الذين يدهشون المواطنين بأعمالهم السحرية وأسنانهم الصناعية والجليد والسجاد الطائر ، وكانت الحرب الأهلية التى بدأت مع بداية السكة الحديدية الأشبه من خلال مزرعة كبيرة تملكها الولايات المتحدة التى قضت على عزلة المدينة وفتحت أبوابها للتوسع والرواج .

ومرت ستة أجيال من قبائل الويندا ، الذين كتب عليهم الحب الخيالى والتعصب يولدون ويموتون بأسلوب عنيف ، وتصبح الأسرة فى محنة ، فمزارع الموز قد قضى عليها بخمس سنوات من المطر المتصل ، وفى النهاية يحدث إعصار لا يمكن تفسيره يهدم المدينة والأسرة ، ونحن فى هذه الرواية نرى شخصيات عديدة منها خوسيه اركاديو مؤسس الأسرة الذى يعمل بكل ما لديه من حيوية ، وهو مشغول بعلوم الكيمياء ، ويحلم بتحويل الرصاص إلى ذهب . كما يحاول أن يستخدم آلة كى يعثر على اللاعب المجهول فى البيانولا ، وأحد أبناء هذا الرجل يصبح قائدًا ثوريًا ، ولكنه فقد كل رجاله كى يكسب الحرب .

ومن هذه الشخصيات أيضا نرى أورليانو الذى يدخل مع كل المهاجرين الجدد فى مناقشات تبتلع أوقاتهم ، ونساء هؤلاء الأشخاص قد يتّسِمْنَ بالجمود . لكنهنّ متدينات ويخبّئن أسراهن . ويناضلن كى يجعلن رجالهن عقلاء ، الأم الأولى هى أرسولا التى بلغت من العمر مائة عام ، كانت على ثقة بنفسها لدرجة أن أحدا لم يلحظ أنها عمياء ، ويقول ماركيث عن علاقته بهذه المرأة أثناء كتابة الرواية : « عندما وصلت إلى نصف روايتى ، كنت قد وصلت إلى الموقف الذى يجب أن تموت فيه أرسولا وسط الحرب الأهلية ، وعندما ماتت أحسست بروايتى تنهار ، وكى أتجنب هذه الكارثة قررت أن أعيد إليها الحياة ، وأن تقف الرواية عند لحظة موتها فقط ، فإن اختفاء أرسولا كفيل أن يحطم كل شىء » .

ويهمنا هنا أن نشير إلى الصورة المشرقة التى صورها ماركيث فى رواياته عن العرب خاصة فى روايته « وقائع موت معلن عنه » المنشورة فى عام ١٩٨١ ، حيث أن الأسرة التى تحدث عنها ذات جذور وأسماء عربية : « إنهم قوم طيبون ، يعيشون فى سلام ويحترمهم أبناء القرية » ، فسنتياجو نصار هو ابن أسرة عربية هاجرت إلى أمريكا اللاتينية وأقاموا فيها وأصبحوا من أبنائها ، ويصفه الكاتب بأنه « صاحب أهداب عربية وله شعر مجعد ورثه عن أبيه » ، أسرة عربية صغيرة عميدها إبراهيم نصار الذى جاء إلى كولومبيا « مع مجموعة من العرب بعد نهاية الحرب الأهلية » ، وهذا النصار ، كما جاء على لسان دبينا فلور خادمته ، رجل « لن يولد مثله بعد الآن » ، وقد بنى إبراهيم بيته الصغير المطل على البحيرة على الطراز العربى كى يسمع هدير الأمواج ، وقد مات قبل أن يقتل ابنه وهو فى الحادية والعشرين عامًا بثلاث سنوات ، وحول حدث القتل المعلن عنه يصوغ الكاتب روايته عن صديق صباه ، إنها رواية لتكريم صديق مات غدرًا ، حين زعمت عروس فى المدينة أن سنتياجو فض بكارتها ، ولكنَّ العروس كاذبة . ومات سنتياحو بشكل مجانى . وراح الكاتب يفتش طوال ربع قرن عن ملابسات الجريمة وأسبابها ، فعاد إلى دفاتر التحقيق لإثبات براءة نصار ولسرد تفاصيل هذا الحدث الذى كان يعرفه أبناء القرية مسبقا فأغلقوا أعينهم عليه .

سنتياجو نصار عند ماركيث شاب ملىء بالحياة والحيوية والعطاء ، تحبه بنات القرية « كان يحتفظ بخفة روحه ، وقد أكد الجميع أنه كان يبدو أقل تكلفة ، حين يكون فى منتهى الأناقة » ، هو الابن الوحيد لثمرة زواج عرفى لم يعرف لحظة سعادة واحدة ، لكنه كان يبدو سعيدًا مع أبيه حتى آخر لحظة فى حياته ، « وقد تعلم من أبيه منذ أن كان طفلاً « القدرة على استخدام الألعاب النارية وحب الجياد ، وشموخ الطيور التى تحلق فى أعلى السماء ، وتعلم منه أيضًا

قيمة الفنون الجميلة وحنكة كبار السن ، كانا يتحدثان اللغة العربية فيما بينهما ، لكن هذا لا يحدث أمام بلاثيدا ليتيرو حتى لا تشعر أنها معزولة عنهما » ، وكما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى ، فإن الأب أمادور قد قال : « إن سنتياجو نصار كان يتمتع بذكاء حاد وعزيمة قوية » .

ويقول الراوية عن سنتياجو نصار فى مكان آخر من الرواية : « كان أكثر سموًّا من أن يفكر فى فتاة كهذه ، كان رجلاً قوى الحس ، يسير وحده مثل أبيه ولا يمشى بخيلاءه مثل هؤلاء الفتيات العذارى ، ولم يحدث أن كانت بينه وبين فتاة علاقة تقليدية سوى علاقته بفلورا ميجيل خطيبته .

من المعروف أن ماركيث قد استمد وقائع كل رواياته من أحداث حقيقية عاشها أو شاهدها بنفسه ، أو شاهدها التاريخ فبعد حديثه عن جده للكولونيل ، استلهم تاريخ حياة أسرته فى « مائة عام من العزلة » ، ثم عن الشاعر روبن داريو ، قدم « خريف البطريرك » ، وعن سنتياجو نصار قدم روايته التى أشرنا إليها ، وهكذا فعل فى روايته « الحب فى زمن الكوليرا » فنحن أمام قصة حب تجمع بين رجل وامرأة ، لقد عمر هذا الحب طويلاً بين خيريما دى سانت أمور (والاسم نفسه دلالة واضحة) الذى ينهى رحلته مع الحياة والحبيبة فى السبعين من عمره فى حين يبدأ فلورينتنو آريثا ، رحلته المماثلة فى نفس السن ، هذه الرحلة كانت سببا لأن يواصل الحياة لأكثر من نصف قرن ، ففى الثانية والعشرين من عمره فقد أريثا حبيبته فرمينا التى تتزوج من طبيب ثرى ، مما يدفعه إلى أن يصبح ثريًّا هو الآخر كى يصبح جديرًا بها ، دون أن يراعى اعتبارًا لزوجها ، لأنه يقرر مع نفسه وكأن الأمر بيده بأن زوجها سوف يموت ، وهكذا يمضى لتحقيق هدف حياته ليبلغه بعد واحد وخمسين عامًا وتسعة أشهر وأربعة أيام .

أما خيريما فقد أحب الحياة بعاطفة غامضة فقد قرر الانتحار وهو فى السبعين بعد أن ماتت حبيبته التى رافقته ما يقرب من عشرين عامًا بولاء ورقة ، ساعدته

على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذى ساعدهما للتعرف على كل أسباب السعادة ، ولذا فعندما ماتت وتركته وحيدًا أحس أنه ليس فى الدنيا ما يستحق أن يستكمل مسيرته من أجلها .

ويصور ماركيث رحلة الرجلين خاصة أريثا ، فمنذ أن كان فى الثانية والعشرين حصل على مراده ، فهناك فتيات ونساء يرغبنه ، لكنه ماضى فى رحلته قدمًا ، فهو لم يتوقف عن التفكير فى حبيبته لحظة ، وكم قضى الليل مسهدًا يتقلب فى الفراش من أجلها مما جعل أمه تتصور أن الأرق الذى أصاب ابنها هو الكوليرا ، ويكتشف الطبيب أن أعراض الحب أشبه بأعراض الكوليرا ، ومثلما أرسلت الزوجة عشرات الرسائل إلى زوجها الذى هجرها فى « وقائع موت معلن عنه » فإن أريثا يكتب لحبيبته مجموعة كبيرة من الخطابات ، وقد صدم الشاب كثيرًا حين رأى أن حبيبته تعيش حياة سعيدة مع زوجها ، كان ذلك سببًا لأن يجعله يحس بازدراء شديد لنفسه : « أحس أنه بائس وقبيح ووضيع وأنه ليس غير جدير بها فحسب ، بل وبأى امرأة أخرى فى العالم – وكان يمضى مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته ، ولكنه مع مضى الزمن ومساعدة أمه التى حاولت إحاطته بظروف أكثر موضوعية للانطلاق فى الحياة فبدأ بأول حب فى الفراش مع أرملة تبعها بأخرى وأخرى ، وبعد أشهر كانت لديه علاقات غرامية عديدة ثم نجح فى عمله فى إحدى شركات الملاحة .

وحين بلغ أريثا الثالثة والسبعين – كما جاء فى مجلة الطليعة الأدبية يناير ١٩٨٨ – فإن أريثا أراد أن يضع اختياره الذاتى وهدف حياته الوحيد موضع التنفيذ ، ذلك الاختيار الذى لا يتشابه ، بل ويختلف مع كل الاختيارات الاجتماعية المطروقة ، فهو اختيار قادم من طرق سرية تمتد منذ دهر من السنين فى الأعماق

السحيقة للنفس وتمر بالقلب والضمير ، ولأجل ذلك جرب منهجًا مختلفًا ، « لقد كان عليه أن يعلم حبيبته العجوز الآن أن الحب حالة غير وسطية . وأن الحب هو الحب فى كل زمان ومكان ، ولكنه يشتد كثافة كلما كان أقرب إلى الموت » .

ومن التاريخ اختار ماركيث أن يقدم وقائع من حياة الزعيم سيمون بوليفار فى روايته « الجنرال فى متاهته » المنشورة عام ١٩٨٩ ، وقد اختار الكاتب أن تكون الوقائع فى الأيام الأخيرة من حياة الجنرال ، إنها أيام الأفول وليست أيام المجد ، ومن هنا اصطبغت الأحداث بالمأساوية المريرة التى لا تجعل البطل يبقى فى عنفوانه بل فى انهياره ، مما يدفعنا للرثاء له وليس الإعجاب به ، لقد مضى سيمون بوليفار فى طريقه إلى المنفى ، وليس معه إلا خادمه المطيع وعدد قليل من المخلصين له ، وامرأة مسنة فرضوها عليه دون رغبته لتعد له طعامه ، ثم أرجوحته التى ينام فيها ، وعدد من المقتنيات والهدايا وقطع النقود ، لقد خرج الرجل الذى حرر أمريكا اللاتينية من الأسبان خاوى الوفاض ، ليرتمى فى متاهة انقطع مساره فيها بموته بعد أن حلت بجسده أمراض عديدة .

وكما كتب على الصواف فى عدد يوليو ١٩٩٠ من مجلة «الشاهد» ، فإن توازى العمل التأريخى بالعمل الروائى كان من الطبيعى أن يدفع إلى تقصى حقائق أخرى ، يسهل التنازل عنها فى القص الروائى ، كما أنها لا يمكن أن تثير أدنى اهتمام لدى الباحثين أو المؤرخين ، وبالنسبة إلى ماركيث كان ضروريًا أن يبحث عمن يمكن أن يقدم له المساعدة فى « تقصى الليالى التى كان فيها القمر بدرًا خلال السنوات الثلاثين الأولى من القرن ، وما إذا كان بوليفار قد تلذذ فعلاً بأكل ثمار المانجو التى لم تكن أشجارها قد وصلت إلى أمريكا بعد ، وما إذا كانت الشخصيات الرئيسية الأخرى موجودة فى مكان ما فى ذلك اليوم بعينه » .

رغم أن اللغة الإنجليزية هى الأولى التى حصلت على جائزة نوبل من حيث عدد الأدباء الذين يكتبون بها وفازوا بالجائزة ، إلا أن جولدنج يعتبر الكاتب رقم٧ فى قائمة الأدباء البريطانيين الذين حصلوا على الجائزة ، وقد سبقه فى مجال الرواية كل من روديارد كبلنج وجالزورثى ، كما حصل عليها الشاعران ت . س أليوت وهيكس ، أما ونستون تشرشل فرغم أنه قدم روايات متواضعة . إلا أنه منح الجائزة كزعيم اجتاز أزمات عديدة مرت ببلاده ومنحت الجائزة له لامتيازه فى الوصف التاريخى والجغرافى ، ولفصاحته الممتازة فى الدفاع عن القيم الإنسانية .

أما ويليام جولدنج فقد جاء فى حيثيات الجائزة أنه « يتعارض مع هؤلاء الذين يؤمنون أن السياسة أو النظم الأخرى هى التى خلقت الشر فى العالم . لكن الشر ينبع فى أعماق الإنسان نفسه وأنه موجود فى قلوب البشر منذ بدء الخليقة . حيث تكونت نظم الشر لتغيير كل شىء كى يكون للخير دوره فى تغيير العديد من الأشياء » .

وبالنظر إلى روايات جولدنج القليلة العدد ، نجد أن الكاتب يؤكد بالفعل على هذه المعانى فمنذ أولى رواياته « اله الذباب » وحتى آخرها « درع السفينة النارى » نجد الكاتب يؤكد على جانب واحد وهو العنف والشر المتأصلان داخل الإنسان ، وأنهما تسكنان داخلنا جميعًا حتى أصحاب الخير والأكثر نقاء ، وهو سرعان ما يظهر مع الإنسان حينما يتعرض لقوى قهر معينة سواء قام بصنعها ، أم صنعتها الظروف التى تحوطه ، ورغم أن الشر موجود بصورة واضحة لدى المجرمين والخارجين على القانون ، فإن جولدنج يختار نماذج بشرية تصدمنا إذا مارست هذا الشر ، فإذا كان الأطفال هم عنوان البراءة ، وإذا كان رجال الدين هم صانعو الهداية للبشر ، فإن الأطفال ورجال الخير حينما يتعرضون لضغوط ما فإنهم يتحولون إلى قوى عنيفة شرسة تنسال منها الدماء ، وتستخدم

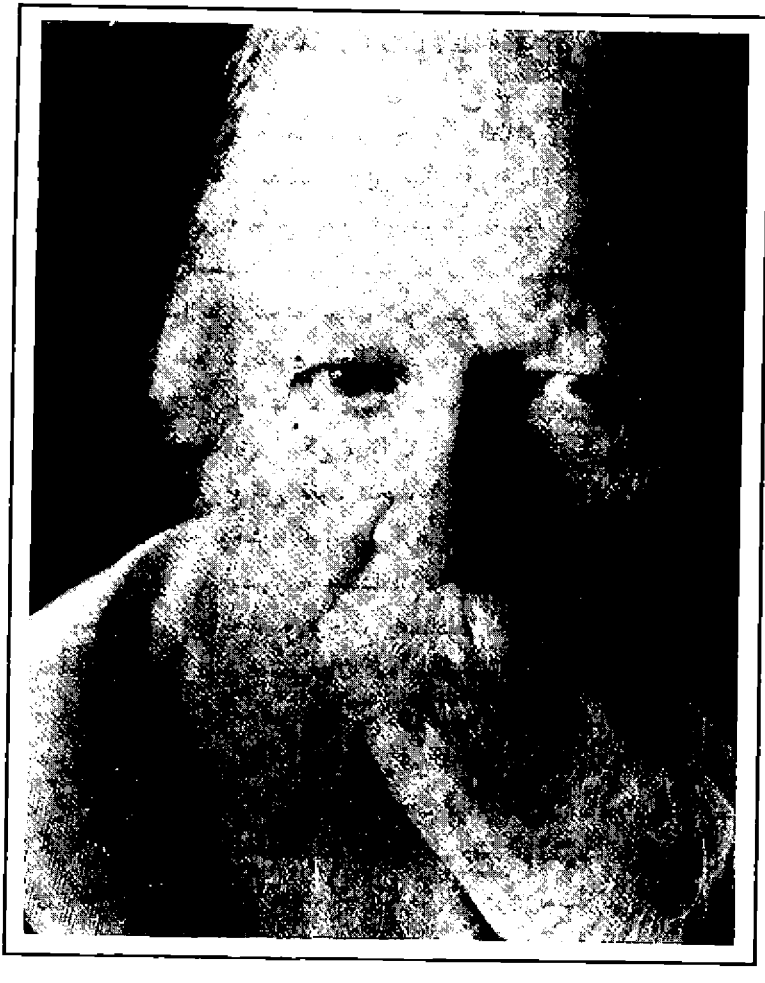

ويليام جولدنج - ١٩٨٣

كافة أنواع العنف كى تظل باقية عنوانا على تأصل السوء داخلها . وقد بدا أطفال روايته الأولى « إله الذباب » واضحًا ، فما الذى دفع بهؤلاء التلاميذ الذين وجدوا أنفسهم داخل جزيرة معزولة إلى الصراع فيما بينهم بهذه الحدة ، هؤلاء الأطفال وجدوا أنفسهم هناك فوق الجزيرة ، الظلام يسود المكان فى الليل ، والرعب فى النهار ، لقد دفعتهم قوًى إلى هناك ، قيل انها إحدى وحدات الأسطول البريطانى ، إنهم فى مجتمع معزول عليهم أن يعيشوا إلى أن تتم لهم النجاة ، يقومون بتقسيم أنفسهم فريقين ، فريق يقوم بإشعال نيران مقدسة دائمة كى يمكن أن يحصلوا على النجدة حينما تمر سفن أو طائرات قريبة من المكان ، والفريق الآخر عليه أن يجول داخل الجزيرة يصطاد الخنازير ، ويأتى بالطعام لبقية المجموعة التى يتزعمها كل من رالف وجاك ، وعلى كل من المجموعتين أن تمتثل لأحكام الفريق ، لكن ، ولأن البشر دائمًا يملكون غرائزهم ، فإن البعض يبدأ فى الخروج على قانون المجموعة . ويبدأ الصراع فيرون شيئا جاثمًا فوق الجبل ، أشبه بوحش كاسر يثير الرعب والخوف بينما المفروض أن يثير لم شمل المجموعة ، يتصورونه وحشًا ، يفكرون أن عليهم أن يقدموا له قربانًا كى يعملوا على إرضائه ، ويروحون يصطادون خنزيرًا : « هنا سقط الخنزير وقد أجهده الإعياء ، هرع الصيادون نحوه ، وهدأت الثورة المرعبة من عالم لا نعلم عنه شيئا جعله فى حالة جنون فصرخ . وهو يقاوم بينما امتزج المكان بالعرق والضوضاء والدم ، وجر الرعب روجر نحو الحيوان المتكوم فأخذ ينخس بحربته إلى أن ظهر لحم الخنزير ، بينما وقف جاك فوق الخنزير يطعن الجزء الخلفى بسكينته ، ووجد روجر مكانًا لبدء الطعن ، ثم دفع حربته وأخرجها وهو ينحنى بكل ثقله على الحيوان ، وبدأت الحركة فى الدخول بوصة تلو البوصة داخل جسد الحيوان ، وأصبح الهتاف الملىء بالرعب صراخًا عاليا ، ثم أمسك جاك برقبة الحيوان وامتلأت يداه بدمائه المندفعة من أثر الذبح ، انهار الخنزير تحتها فارتميا بثقلهما فوقه ، وقد ملأتهم النشوة ، ومازالت الذبابات ترقص تمامًا لما يحدث وسط الغابة المقفرة » .

وبعد أن تم اصطياد الخنزير ، يقطعون رأسه ويضعونه فوق رأس حربة ، فيتجمع حوله الذباب الذى يعلو طنينه ويتحول إلى مصدر خوف بالنسبة للصغار الذين لا يزيد أعمارهم عن أربعة عشر عامًا ، فيزداد الصراع بين الأطفال ، وتنسال الدماء حارة ، يموت اثنان من الأطفال نتيجة لهذا التناحر الشديد ، وربما كان يمكن أن يموت أكثرهم ، أو لعلهم جميعًا لولا أن تجىء سفينة لإنقاذهم فى اللحظة المناسبة ، وعندما يقل الأطفال السفينة يجدون أنهم قد خسروا الكثير ، لقد فقدوا براءتهم التى قبعت هناك فوق الجبل ، فلم يكن هناك وحش كاسر فوق الجبل ، لكن هذا الوحش كان يسكن داخل هذه القلوب البريئة .

هذه وقائع رواية « إله الذباب » التى حصلت على جائزة نوبل وهى كما أشرنا ، الرواية الأولى للكاتب المولود فى مدينة سانت كولب مينور بكورنوال عام ١٩١١ ، وهى المدينة التى لا يزال يسكن فيها حتى الآن ، كان الأب مدرسًا ، درس ويليام جولدنج فى إحدى الكليات بجامعة أوكسفورد ، وحين جند فى البحرية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، اشترك فى معركة نورماندى عام ١٩٤٤ ، ولا شك أن سنوات التجنيد الطويلة قد لعبت دورًا هامًا فى حياة الكاتب وأدبه مثلما لعبت فيما بعد مهنته كمدرس .

وجولدنج شأن الكثير من الكتاب البريطانيين ، كرس أعماله لتدور أحداثها فى البحر . فهو بذلك ينضم لأدباء أخلصوا للبحر فى المقام الأول مثل جوزيف كونراد ، والأمريكى هيرمان ملفيل كما أن الحرب صهرته مثل الكثير من الأدباء منهم أندريه مالرو ، وبعد أن انتهت الحرب بدأ جولدنج يمارس الكتابة ، وقدم روايته الأولى « إله الذباب » إلى واحد وعشرين ناشرًا رفضوها جميعًا ، وكان فى تلك الفترة قد عمل مدرسًا فى مدينة سالزوبرى فساعده هذا العمل على التعرف على عالم الصغار الذين قدمهم فى روايته « إله الذباب » المنشورة عام ١٩٥٤ ، ولاقت نجاحًا منقطع النظير مما دفع الكاتب أن يقدم فى العامين التاليين روايتين هما : « الورثة » و « كريس مارتن » ، ثم قدم روايته « السقوط الحر »

عام ١٩٥٩ ، ومن بين أعماله الأخرى « الهرم » ١٩٦٧ و« إله العقرب » ١٩٧٢ ، و « عتمة مرئية » عام ١٩٧٩ ، ثم « شعائر المرور » ١٩٨٠ ، وفى عام ١٩٨٤ نشر كتابه « هدف متحرك » ، وفى عام ١٩٨٦ نشر كتابًا عن رحلته إلى مصر تحت عنوان « يوميات مصرية » ، ثم جاء كتابه الأخير « درع السفينة النارى » .

فى روايته « كريس مارتن » نرى مارتن بحارًا يعيش لحظة موته ، وفى هذه اللحظة ينساب العديد من الأفكار داخل ذاكرته ، خليط بين الماضى وآمال المستقبل ، فالماضى به رجل وغد عاش حياته ، فوق أكتاف الآخرين ، يغش فى الامتحانات ، ويرتاد أسرة النساء ، ويغتصب القاصرات ، أما الغد فيتمثل فى أمله أن يبقى على قيد الحياة بضعة أيام أخرى ، يحقق فيها بعض ما يتغيه ، ويؤكد جولدنج من جديد على قوى الشر الكامنة فى البشر ، وإذا كانت ظروف الجزيرة قد أخرجت الشر من قلوب الأطفال فى روايته الأولى ، فإن الشر المتأصل داخل كريس مارتن يظهر تجاه كل ما هو خالق ومخلوق ، بل وتجاه نفسه التى لم يلتفت إليها إلا فى تلك اللحظة التى يموت فيها .

وهناك فى روايته « عتمة مرئية » جوانب أخرى من الشر الكامن فى النفس الإنسانية ، فماتى طفل فى الرابعة عشر من عمره ، يمر بلحظة يقظة عقب إصابته بحريق جسيم ، إنه أيضًا يموت مثل كريس ، تتداعى إليه كل ذكريات الأمس ، وإذا كان البحار رجل حنكته السنون فإن ماتى تلميذ فى إحدى المدارس التى يمارس فيها الناظر هوايته الغريبة ، فالسيد بدجرى ينظر للتلاميذ كل حسب جماله فهو يقوم بتصنيفهم حسب وسامتهم ، وماتى هو أكثر الأطفال جمالاً ، لكن من الخارج فقط ، لقد تعلم أن يجتاز مرحلة الطفولة بسرعة غريبة ، فلم يعد يعيش براءتها وبساطتها .. فرغم أنه لا يكف عن قراءة الكتاب المقدس ، إلا أنه قد مارس العديد من المهن ، يتلذذ بالتلصص على إحدى النساء السيئات السلوك ، يضع كتاب المطالعة تحت إبطه ، ثم يهرب من الحسناوات وعليه أن يمارس أشياء عديدة مثل التمرينات الرياضية ، وأن يتصرف كالنبلاء .

وهناك أيضا أطفال آخرون فى نفس الرواية ، لكن الأكثر شرًّا هما التوأم طونى وصوفى ، فإذا كان ماتى قد هرب من أستراليا إلى بريطانيا ، فإن طونى يلجأ إلى كوبا ، وتقع أخته صوفى فى غرام أبيها ، وعندما تحيط مشاعرها تجد أن الجنس وسيلة للتنفيس عن مشاعرها المحيطة .

وتدور أحداث روايته « شعائر المرور » أيضًا فى عالم البحار ، وتدور الأحداث هنا مع بداية القرن التاسع عشر ، فوق سفينة متجهة هذه المرة من بريطانيا إلى أستراليا ، وفوق السفينة يوجد رجل غريب يدعى أدموند تالبوت ، ويشير الكاتب أحيانًا أنه قس قديم ، ومع ذلك فهو شاب فى مقتبل العمر أمامه المستقبل مفتوح ، يتعرض ركاب السفينة لدوار البحر الذى يجعلهم يتقيئون ، أصاب الدوار أولاً تالبوت الذى عليه أن يتعاطى الإكسالات التى يحتفظ بها ، عليه أن يعيش مستقلاً عن بقية الركاب ، مثل الرسام بوكلى الذى يصحب معه أسرته ، يتحدث تالبوت مع ابنة هذا الرسام ، ويخبرها أنه خجول يلاحقه سوء حظ ، أما السيد كوللى فلا يشعر بأى مودة تجاه ربان السفينة الذى أفسدته رياح البحار السبعة التى جابها ، على السفينة أن تمر بخط الاستواء ، وعندما يحدث ذلك ، على الركاب ممارسة طقوس خاصة تمليها عليهم الظروف ، يجد تالبوت نفسه منهارًا ومجبرًا أن يمارس تجربة شاذة مع أحد البحارة ، وعندما تحط السفينة أمام الشاطئ يرى الوجوه تختلف ، إنه يمر بمرحلة خلاص مضادة ، ويشعر أن الشر قد كمن داخله .

حاول جولدنج بعد حصوله على جائزة نوبل أن يقوم برحلة فوق مياه النيل ، وحول تجربته هذه قدم كتابه « يوميات مصرية » الذى كتب عنه الدكتور رمسيس عوض – جريدة الجمهورية ٣١ أكتوبر ١٩٨٥ –قائلاً : « ورغم تمرس جولدنج بالملاحة فإن درايته بها لم تعد عليه بالنفع فى الملاحة فى النيل ، ومن ثم فقد أسلم قيادة مركبه للريس شاذلى ، وبسبب عدم معرفته باللغة العربية فإنه اعتمد

اعتمادًا تامًّا على مرافقة مترجمه علاء سويف فى التفاهم مع طاقم القارب الخمسة مع الأهالى بوجه عام » .

ويقول د . عوض إن « الريف المصرى – فى نظره – ليس قذرًا أو عفنًا ولكنه غير منظم أو مرتب ، والأخطر من هذا كله أن صورة الفلاح الذى يعيش فى فقر مدقع اختفت أو كادت تختفى من مصر إلى الآن ، فالفلاح الصعيدى الذى استضافه فى بيته يملك رغم فقره جهاز تليفزيون أبيض وأسود فى بيته ، وليس من تفسير لهذا فى نظره إلا أن يكون الفقر المدقع قد اختفى نهائيًّا من الريف المصرى أو أن المصريين يخفون فقراءهم كما يخفى صاحب العاهة عاهته حتى لا تقع أنظار الأغراب والأجانب عليهم » .

ويقول الكاتب أيضًا إن جولدنج أحب النوبيين « لبشاشتهم ورضائهم بالحياة ، وقام بزيارة النوبيين المهجرين بسبب حفر بحيرة ناصر ، ورغم أنهم لم يجأروا أمامه بالشكوى ، فقد أحس بأنينهم الصامت ، وبأنهم غير سعداء فى موطنهم الجديد ، وبأن الشوق والحنين يملأ صدورهم للعودة إلى موطنهم الأصلى الذى اضطرتهم الظروف إلى تركه ، فضلاً عن أنهم يريدون الحفاظ على لغتهم النوبية وقوميتهم النوبية » .

يقول الناقد برنار جينير فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور – ١٩ ديسمبر ١٩٩١ – ان روايته الأخيرة « درع السفينة النارى » بمثابة الجزء الثالث من ثلاثيته البحرية التى بدأها برواية « طقوس العبور » ثم « طلقة إنذار السفينة » ، وهنا نرى نفس الشخص أدموند تالبوت الذى قرر أن يترك وطنه إنجلترا إلى أستراليا فى بداية القرن الماضى ، فركب سفينة عليها أربعة وسبعون مدفعًا ، وكان رفاقه فوق السفينة بحارة وأبناء طبقة راقية ، ومغامرين وامرأتين جميلتين ، وأطفالاً ، وبعض الأشخاص ، وتستمر الرحلة عامًا بأكمله يعانون من أحداث بحرية ، وحالات اختفاء غامضة ، ويقول جولدنج : « لا أريد أن أقدم إعادة طبع للكوكب وأنا أكشف كل هؤلاء الأشخاص فوق ظهر السفينة ، لقد حاولت أن أضع

عملى من خلال امرأتين ، ووقائع فى الكواليس تسمح أن نتوغل داخل عالم تالبوت ، لقد خصص جولدنج قرابة ألف صفحة فى الروايات الثلاثة من أجل شخص واحد محاط بالغرقى والتعقيدات ، لكن تالبوت رجل يكتشف نفسه خلال هذه الرحلة .

وفى الحديث الذى أجرته جريدة لوفيجارو مع الكاتب فى ٢٥ نوفمبر ١٩٩١ ، أكد أنه لم يكن ينوى أن يكتب جزءا ثالثًا لهذه الرواية ، لكنه وجد تالبوت يستيقظ فى داخله كى يدفعه للكتابة مرة ثالثة عنه .

وفى نفس الحديث من الجريدة أكد جولدنج أن جائزة نوبل لم تغيره ، وكل ما فعلته بالنسبة له أن جعلت شهرته تزداد ، وذلك مثل الفيلم الذى أخرجه بيتر بروك عام ١٩٦٢ عن « إله الذباب » : « لقد كنت كاتبًا معروفًا فى عالم الأدب ، وربما أيضا فى عالم التعليم ، ولكن الفيلم وجائزة نوبل قد أذاعا اسمى أكثر ، ولم ألحظ أى تغييرات علىّ ، فعندما ينظر الناس إلىّ فى الشارع فإننى لا أبالى » .

ويهمنا هنا أن نقتطف من كلمات جولدنج حسب الحديث المنشور فى مجلة « آفاق عربية » فى يوليو ١٩٨٧ ، حيث قال عن تصوره نحو العالم : « اعتقد أنه مرن بدرجة مقبولة ، إنى أميل إلى تقبل آخر التقليعات بكل شغف لأنها تشكل مصدر متعة لى ، اعتقد بأنه من الأرجح أننا نجد ثقوبًا سوداء هناك لأننا اكتشفناها هنا ، كما تعلم أننا حققنا أشياء معينة فى هذا القرن ، لم نتصور أن بمقدور البشر القيام بها والتى يتعذر وصفها ، وتلك تعتبر ثقوبًا سوداء بشكل من الأشكال ، وعليه فإن الشىء الثانى الذى نفعله هو اكتشاف مكانها فى الكون ، وبعبارة أخرى أتصور أن هناك اتجاهًا فى عقل الإنسان وطبيعته لجعل الكون يطابق صورته التى ينسجها عقله هو ، على أية حال ، هناك الشىء القليل جدًّا الذى يستطيع أن يفعله بشأنه ، إنه هناك فى الخارج وهو ينظر إليه » .

عندما منحت أكاديمية أستكهولم جائزة نوبل عام ١٩٨٥ للكاتب الفرنسى كلود سيمون أعطت عدة مؤشرات لاتجاه الجائزة فى تلك الفترة ، فها هى الجائزة تعود إلى فرنسا مرة أخرى بعد خمسة وعشرين عامًا ، حيث نالها الشاعر سان جون بيرس (١٩٦٠) ، وباستثناء جان بول سارتر الذى رفضها عام ١٩٦٤ ، ورغم غياب الجائزة عن فرنسا طيلة ربع قرن بأكمله ، إلا أن فرنسا هى أسعد الدول حظًا مع جائزة نوبل ، حيث نالتها ثلاث عشرة مرة ، تليها الولايات المتحدة ، مع أن الجائزة قد منحت عام ١٩٨٥ لأديب نسته وسائل الإعلام قبل ذلك طويلاً وخاصة أنه لم يتوقف عن الكتابة الإبداعية ، وقد كانت مجلة « لوبوان » فى ١٤ أكتوبر ١٩٨٥ – أى قبل حصول سيمون على الجائزة بأيام ثلاثة ، قد أشارت أن نوبل قد تجاهلت الفرنسيين ، وأن هناك ثلاثة أدباء يستحقون الجائزة هم ميشيل تورنييه ، ومرجريت يورسنار ، وكلود سيمون .

وقد تبدو كل هذه النقاط مألوفة ، لكن النصر الحقيقى الذى ناله سيمون بهذه الجائزة هو الدليل الأكيد ، أن الرواية الجديدة أصبحت عملاً كلاسيكيًا يحصل على الجوائز ذات المنظور التقليدى ، وتنتهى أسطورة أن هذا النوع من الإبداع قصير العمر أو هو هذيانات فردية كان عليها أن تختفى بسرعة ، فالرواية الجديدة موجودة ، وتحصل على الجوائز التقليدية ، وتجد فرسانًا جددًا .

كلود سيمون إذن أحد أدباء الظل ، بمعنى أنه أكثر ابتعادًا عن وسائل الإعلام حتى حصوله على الجائزة ، اسمه الحقيقى هو أيوجين هنرى ، مولود فى العاشر من أكتوبر عام ١٩١٣ بمدينة تاناريف بمدغشقر ، أبوه أنطوان سيمون الذى كان فى تلك الفترة ضابطًا ، وفى عام ١٩٢٤ ، رحل الصغير إلى باريس ليدرس الأدب فى مدرسة ستانلاس ، ثم درس فى أوكسفورد وكمبردج كما درس أصول الفن التشكيلى على أيدى الفنان اندريه لوت ، وفى عام ١٩٣٢ قام برحلات

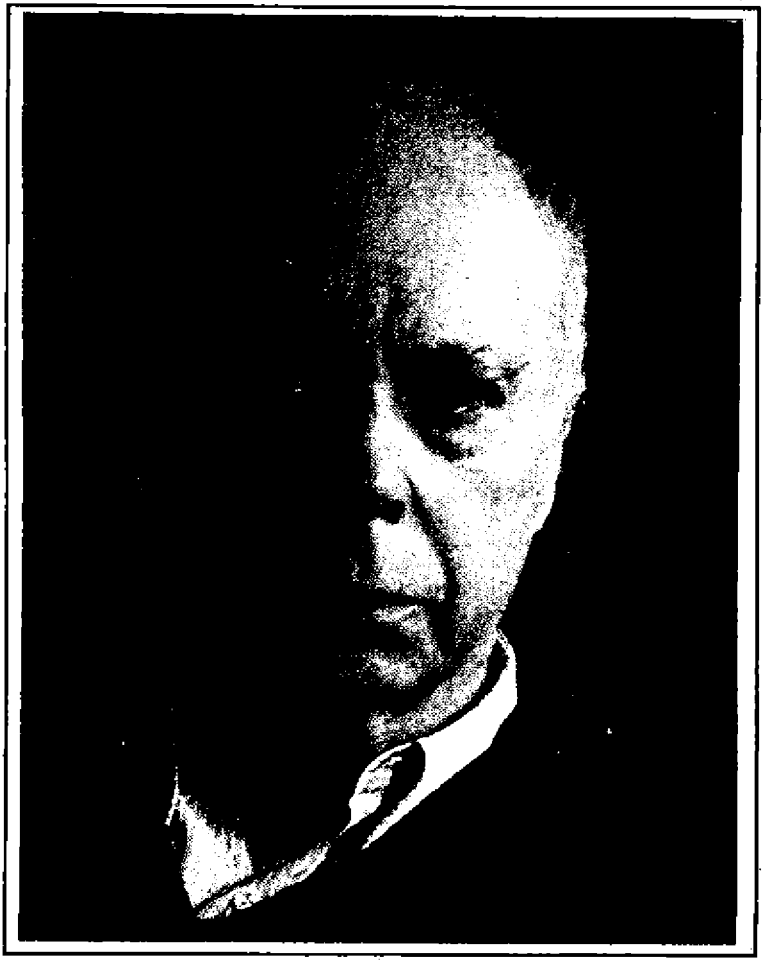

کلود سیمون – ۱۹۸۵

عديدة فى أوروبا ، ثم التحق بالخدمة العسكرية عامى ١٩٣٤ و١٩٣٥ ، وعاود مرة أخرى الرحيل عبر الدول الأوروبية ، وفى عام ١٩٣٩ بدأ كتابة روايته الأولى « الغشاش » ، ثم انضم ثانية إلى القوات المسلحة ، وتم أسره لدى الألمان ، ولكنه تمكن من الهرب فى نوفمبر عام ١٩٤٠ ، وأثناء سنوات الحرب لم يكف سيمون عن كتابة روايته الأولى والتى نشرت عام ١٩٤٥ عقب نهاية الحرب . ثم بدأت حياته الأدبية .

لم يكتب سيمون طوال الخمسة والأربعين عامًا الأخيرة سوى الرواية فقط ، وكتابًا واحدًا عن الفن التشكيلى تحت عنوان « نساء » نشره عام ١٩٦٦ ، أما رواياته فعددها ثمان عشرة رواية منها « جاليفر » ١٩٥٢ ، و « قداس الربيع » ١٩٥٤ ، و « الريح » ١٩٥٧ ، ثم « العشب » ١٩٥٨ ، و « طريق الفلاندرا » ١٩٦٠ ، التى نال عنها جائزة نوبل ، و « الميدان » عام ١٩٦٢ ، و « أجسام موصلة للحرارة » ١٩٧١ ، و « درس الأشياء » ١٩٧٥ ، ثم « الدعوة » ١٩٨٧ ، و « الأكاسيا » ١٩٨٩ .

جاء فى حيثيات منح جائزة نوبل لسيمون أن الرواية الجديدة التى يمثلها الكاتب « شىء ما يعيش فينا ، وسواء شئنا أم أبينا ، سواء فهمناه أم لم نفهمه ، سواء آمنا به أم لم نؤمن » .

وكلود سيمون هو شيخ مدرسة الرواية الجديدة ، ففى النصف الأول من الخمسينات أصبحت هذه الروايات مدرسة أدبية بظهور جيل جديد يمثله كل من الأب روب جرييه وصموئيل بيكيت ، ومرجريت دوراس وميشيل بوتور وروبير بينجيه ، ثم السامورائه فى إيطاليا ، وانتقلت إلى الولايات المتحدة فرأيناها عند جويس كارول أوتس ، والرواية الجديدة ليست حالة فردية ، بل هى اتجاه أدبى جماعى جذب إليه الكثيرون من المعجبين من الأدباء والقراء على السواء . ولعل أبرز أبنائه فى التسعينات جان رووه وايف سيمون .

فى العدد رقم ٢٤٢٣ من مجلة « لونوفيل ليتريير » المخصص عن « سقوط وارتفاع الرواية الجديدة » يقول جان ريكاردو : « الرواية الجديدة تستقبل دائمًا عملاء جددًا ، ويمكن أن نقول إن الفكرة التى جاءت بالرواية الجديدة هى فكرة ثقيلة لها العديد من المعجبين . يكفى أن نذكر ما كتبته الصحف منذ أكثر من اثنى عشر عامًا ، صحف مثل « آرت » و « الفيجارو ليتريير » ، قالوا : إن الأمر لا يعدو أن يكون تقليعة ستختفى مثلما اختفت أشياء كثيرة . ومن الأفضل أن تنقشع ، وأن نلاحظ أن هذه الرؤى التقدمية والتنبؤية ليست سوى شىء آخر للرؤية ، لقد اختفت جريدة « آرت » ، وذهبت « لوفيجارو ليتريير » لحال سبيلها بعد أن أصبحت صفحة ضمن صفحات الفيجارو .

« لا أقول هذا لأنهم أعلنوا موت الرواية الجديدة ، ولكن لأنهم قد ماتوا هم ، ويكفى أن سجلات الوفيات قد ماتت قبل أن يتصوروا أنهم دفنوها ، الأمر مستقر الآن ، ولنرو على الصحف الأخرى قائلين : إنه فى الواقع توجد أشياء جادة بما فيه الكفاية ويجب أن نعاملها يومًا باسلوب النظرية » .

ويختلف أدب كلود سيمون عن أبناء مدرسة الرواية الجديدة قليلاً ، فإذا كان العديد من اللاروائيين يميلون إلى الجملة التلغرافية القصيرة ، فإن سيمون يميل إلى الجملة – الفقرة المتراكمة الألفاظ التى لا تتصل بعلامات الفصل والتنقيط .

وما دمنا نقول « رواية جديدة » فإنه من الصعب أن نقول : إن رواية « العشب » مثلا تروى حكاية فتاة ، أو أن « طريق الفلاندرا » تناقش ، فهى روايات لا تعتمد على الحدوتة ، ولكنها انطباعات كاتب ، وترتيب رموز ، وعروض مشاعر ، فمن الواضح أن أبناء هذه المدرسة قد خرجوا من جعبة جيمس جويس فى خلق تنسيق روائى حول بناء كثير الصلابة قادر على إدارة قدرة

الأشخاص وتنظيم الزمن الذى يتحركون فيه ، فالزمن مرن . وتضيق حيزات الأماكن والأوقات ، ويصبح الرمز سيدًا وتمتزج الأسطورة بالواقع داخل نفس التعبير ، أو كما قال سيمون نفسه : « لا أستطيع أن أبدأ فى كتابة رواية إلا بعد أن أدرس ترتيبها طوال أشهر ، وإلا ابتداء من اللحظة التى أرى نفسى فيها صاحب مخطوطات ، وحيث تبدو بى الفعالية التعبيرية كافية بالنسبة لى ، هذه المنطقة التى تدعونى إلى الأصل وحين أتزود بهذه الأداة ، بهذه البوصلة ، أو بالأحرى ، هذه الخريطة الاحتياطية ، أبدأ ارتيادى لها ، لأن هذه الأدوات هى التى استعملها ، وبدونها لما جرؤت أن أسير حيث أريد أن أخترق الحاجز . (موسوعة أدباء فرنسا – بيير دى بويفار) .

وليس صحيحًا أن الرواية الجديدة بعيدة عن الإنسان ، فهى كما يقول كلود روا : الحياة بتيارها وتدفقاتها وتعقيدها ، فهناك دائما مظاهر الحياة فى روايات سيمون مثل الحرب العالمية التى تحدث عنها فى « طريق الفلاندرا » ، وهناك أيضا الحرب الأسبانية والثورة ، وقوى القهر والفوضوية والشيوعية والستالينية فى رواية « الميدان » .

ويقول كلود روا فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور – ٣ أكتوبر ١٩٨١ – ان سيمون : « يجرى ويعيد نسخ هذه القفة ، إنه يفرش كل هذا فوق مائدة ضخمة ، ويضع فى روايته عالم الفارس سيمون : برد الشتاء القارص فى عام ٣٩ – ١٩٤٠ ، تلك الحرب الغريبة ثم الإحساس باليأس الذى لا مفر منه ، إنه يدعو للجلوس أمامه هذه المهمة من الصور والذكريات والوثائق والإحلال ، بطل الرواية رجل « واقعى » هو جورج أورويل الذى ذهب ليحارب ضد فرانكو ، لقد أصابته الفاشية فى رقبته ، وانتهى الأمر بأن طاردوه كرجل تروتسكى ، وظل حتى وفاته يفكر فيما حدث له فى أسبانيا وهو يصرخ : « انتبهوا ، يمكن أن تخبىء الثورة عوامل تضادها ، الدولة

البوليسية ليست دولة اشتراكية » . ويقول « روا » إن كلود سيمون قد صنع جملة متراكمة تراكم شئون الحياة . هذه الجمل لا تنتهى أبدًا ، إنها متلاصقة لا تفترق ، كأنها كابوس تاريخى ، واعشاب لا نهاية لها ، ولكنه الصخب والعنف للإلياذة ، هذه الجمل تذكرنا بأننا نسينا هويتنا .

وإذا كان الناقد أندريه تشينيه قد قال إنه : على المفكرين الجدد أن يتجهوا نحو القديم ، فإن سيمون يرد عليه قائلاً : بل إننا من هذه الأشياء القديمة نصوغ رواياتنا الجديدة ، ويقول : لا جديد تحت الشمس ، فالناس يولدون ويعانون ويحبون ويقتلون بعضهم ويلقون لبعضهم بالكرات ، وذلك منذ أن خلقت الكرة ، « ومن هذه الجملة فإن سيمون يسعى مع زملائه إلى خلق كوادر جديدة للحياة بفهم مختلف » .

وبالفعل فإنه بالنظر إلى الجملة عند سيمون فإننا سنلاحظ أن التواصل يكاد يكون معدومًا للغاية والحوار نادرًا ، وتتراكم الكلمات والعبارات ثقيلة متزاحمة كأنها متراكمة فوق بعضها ، وليست متتابعة كما هى العادة ، بل يشعر القارئ أن فصلاً كاملاً كأنه جملة واحدة ، يستخدم سيمون الهوامش والتفسيرات والتوضيحات فى حدود ضيقة للغاية ، كما يستخدم الرمز اللغوى باستخدم تعبيرات غير مألوفة ، بأن يصنع تشكيلة جديدة من تعبير متداول ، وهذا النوع يدفع الكاتب إلى الشطحات ثم العودة إلى الحدث الأساسى الذى يتكلم عنه مثلما فعل فى حديثه عن بطل روايته « وال » .. فى « طريق الفلاندرا » التى نقتبس بعضًا من سطورها من الترجمة العربية المنشورة فى دار المأمون عام ١٩٨٧ : ففى هذه الرواية ، إذا شئنا التعرف على حدوتة ، لقى النقيب دى ريكسال مصرعه بيد مظلى ألمانى فى عام ١٩٤٠ ، أراد جورج أحد أبناء عمه وهو من أفراد كتيبته نفسها أن يتقصى الحقيقة ، وبمساعدة بلوم السجين السابق فى معسكر الاعتقال استجوب إنجليزيا الذى كان مروض خيول فى إصطبل دى ريكسال ، وبعد الحرب أسفر البحث عن العثور على أرملة النقيب الشابة .

« لكنه لم يكن ينوى أن يتفلسف ولا أن يبذل جهدًا لكى يحاول أن يفكر بما لم يكن الفكر قادرًا على إدراكه أو تعلمه ، وذلك لأن المشكلة كانت تكمن فى مجرد محاولة تحرير ساقه مما كان فوقها ، ثم إنه قبل أن يطلب منه ما إذا كان يعرف الوقت بالضبط ، سأل نفسه عن الساعة قبل أن يباشر الرد عليه ، ولكن ما جدوى معرفة الوقت ، هذا ما قاله فى نفسه ، معتقدًا أن الوقت على أية حال لا يفيدهما بشىء لأنهما لن يخرجا من هذا القطار إلا بعد أن يكون قد قطع مسافة معينة ، وأن مسألة تنظيم سير القطار لم تكن مسألة وقت بالنسبة إليهما ، ولكن مسألة تنظيمية هى من اختصاص السكة الحديد لا أكثر ولا أقل من قيامه عند عودته بنقل صناديق فارغة أو مواد تالفة . أشياء تأتى فى زمن الحرب بعد كل الأوليات » . (ص ٧٠) .

وعن روايته « الريح » كتب إميل هنريو : « أكد لى من جهات مختلفة أنه قد ظهر كتاب كبير للغاية « الريح » للسيد كلود سيمون . كاتب فذ ، قوى وعميق ، ينتمى إلى سياسة الأنفاس الطويلة وذلك من خلال جمله الطويلة التى يصوغها ، واقعى ، عنيد ، غزير الطاقة ، قوى ، غريب وشمولى ، السيد سيمون هو كل هذا ، ونتيجة لأسلوبه النشازى . فإننى لا أستطيع قراءة كتابه حتى النهاية رغم العديد من المحاولات ، بالنسبة لى فهو توغل ، مثلما قال جيمس جويس ، وهو أيضا مبدع على طريقة : « سنرى بعد مائة عام إن كنت مخدوعًا » ، وإلى القارئ أترك له الحكم وحده » .

أما الدكتور محمد إبراهيم الشوش فيقول فى « الحرس الوطنى » – ديسمبر ١٩٨٥ – ان الطريق الذى اختاره سيمون للتجديد ، يتمشى مع ميوله الشخصية وهواياته الفنية ، فقد جعل الرواية أشبه بلوحة تشكيلية ، فالملاحظة المرئية تمثل أهم قدراته الفنية ، وكل مداركه وتصوراته وذكرياته تتخذ إطارًا مرئيًا مجسدًا ، كما أن الصورة العامة للرواية شبيهة بلوحة فنية تتجسد فيها الحياة فى مجموعة

متشابكة من الصور والألوان ويلتقط الكاتب ، جزئياتها من كل جانب دون التزام بترتيب زمنى أو نمط تقليدى معين » .

ويهمنا أن نتكلم عن صورة الإنسان فى أدب سيمون . فالآخرون ، مثلاً ، يدعون أنهم يستمعون إليك بدافع الذوق ، بينما هم فى حقيقة الأمر مستغرقون داخل أنفسهم « بنفس الصوت المتناغم وابتسامة البائع الذى يعتذر لك عن إزعاجك فى استجوابك بدقة عن أصل لوحة ما ، وموضوعها وتاريخها وكيف ولماذا قام جدك بتعليقها فى ذلك المكان منذ خمسين عامًا فى حين تكون أنت الذى تمر أمامها منذ عام لم يخطر ببالك أن تنظر إليها » .

ففى الفصول الأولى من رواية « الريح » لا تستطيع أن تفهم ، إلا من خطوط ضيقة للغاية ، لماذا يجلس مونتيس ، الراوية ، فى مكتب الموثق ، فقد استدعاه الموثق من أجل محاورته حول ميراثه من أبيه الذى لم يلقه سوى مرة واحدة طيلة حياته ، هناك « حكاية » تتعلق بالميراث ، وبأشياء أخرى ، مثل قصة مونتيس مع الخادمة ، ومع أشخاص يترددون على مكتب الموثق وأشخاص آخرين لهم علاقة بمسألة الميراث وبتفاصيل بالغة الدقة لكل هذه العوالم المتراكمة ، يتحدث كلود سيمون عن كائنات مليئة بالغموض ، كاشفًا عن عالم له اتساعه الخاص ، اتساع غير تقليدى قد يبدو لوهلة كم هو حاذق ، وقد يبدو أنه يمتد إلى مالا نهاية مثل لعبة الصناديق المتداخلة .

ورواية « الريح » أشبه بمحاولة لبعث الدماء الحية فى أشياء جامدة ، مثل صورة لو قمت بقلبها فسوف تكشف عن مناظير جديدة ، بعد أن تكون قد كفت عن جذب الأنظار ، وآنذاك سوف يشعر الناس أن عيونهم يمكن أن ترى الأشياء القديمة برؤى جديدة تمامًا .

فرجل مثل مونتيس يجد نفسه مهتما بمسألة الميراث ، عليه أن يتذكر أشياء كثيرة تتعلق بأبيه الذى لم يره سوى مرة واحدة ، وأن يجمع خطوطًا باهتة تتراكم فيما بينها مثل عبارات المؤلف حتى تتضح الصورة ، لذا فإن أكثر الفصول وضوحًا وسهولة فى هذه الرواية هو الفصل الأخير . حيث تتضح فيه الأشكال والعلاقات .

إذا كان جولدنج قد زار مصر عقب فوزه بجائزة نوبل وألف عنها كتابًا ، فإن سيمون قد زار الاتحاد السوفيتى بعد فوزه بجائزة نوبل ، وحول هذه الزيارة قدم فى عام ١٩٨٨ كتابًا بعنوان « الدعوة » ، كما تضمن الكتاب أيضا نص خطابه الذى ألقاه فى حفل توزيع جوائز نوبل عام ١٩٨٥ ، وفى رحلته إلى الاتحاد السوفيتى شاهد سيمون عروض فرقة البولشوى ، ومجوهرات الأسرة الحاكمة ، وتناول العشاء مع الأسقف : والتقى بالزعيم السابق جورباتشوف صاحب هذه الدعوة ، وكتب عنه قائلاً : « أعتقد أن المهم هو الرجل » . ومن المعروف أن سيمون قد نشر رواية بعد ذلك فى عام ١٩٨٩ ، يحمل عنوان « الأكاسيا » عن روسيا أيضًا ، ولكن من خلال محاكمات الحرب ، ومن الصعب متابعة أحداث الرواية ، ولكن الكاتب برتران بوارو دلبيش كتب يقول : إن الرواية تدور أحداثها فى بداية الحرب العالمية الثانية ، والراوية هنا يتم القبض عليه من قبل قوات الاحتلال النازى ، ويقتادونه كالأرنب ، ولكنه لا يلبث أن يهرب ويتجه إلى بيت هوى ونزل عائلى ملىء بالنساء فى وسط فرنسا ، ووسط أحداث الرواية عن الحرب العالمية الثانية ، يجد القارئ نفسه يقرأ قصة أخرى عن الحرب العالمية الأولى ، فالجندى الذى تم أسره فى الحرب العالمية الثانية كان طفلاً يتيما فى أثناء الحرب العظمى ، كما أن هناك شخصًا آخر فى الرواية لا نعرف له اسما يناديه كل شخص بطريقة تختلف ، فالنساء تقول « سيادتك » ، وتقول واحدة منهن « رجلى » . أما البعض فيقول « سيادته » ، لقد مات هذا الرجل رميًا بالرصاص قريبًا من إحدى الأشجار ..

نجيب محفوظ – ١٩٨٨

*نجيب محفوظ

فى الصفحات السابقة تحدثنا عن الروائيين الذين حصلوا على جائزة نوبل باعتبارهم من خارج إطارنا ، نسعى إلى التعريف بهم للقارئ العربى ، ولكن كاتبنا نجيب محفوظ لا يمكن أن نتناوله بنفس المنظور كأن نقدمه بنفس الأسلوب ، فنجيب محفوظ كاتب من جلدنا ، ولا شك أننا نعرف عن جلودنا أكثر مما نعرف عن الآخرين ، وقد أعقب فوز محفوظ بالجائزة احتفالية ضخمة فى الوطن العربى ، حولت من جائزة نوبل المجهولة تمامًا لدى رجل الشارع المصرى نفسه إلى مناسبة للفرح والسعادة . واكتشف الناس أن الأدب الذى كان قد بدأ ينحسر بشكل واضح ، لظروف اعتقد البعض أنها اجتماعية واقتصادية يمكن أن يحقق لشخص منهم كل هذه الشهرة وايضًا المال ، فقد ترجم الكثيرون جائزة نوبل من خلال المبلغ التى أعلنت الصحف عن حصول نجيب محفوظ عليه من خلال منظور اقتصادى ، فلا شك أن حصول شخص على مثل هذا المبلغ بين ليلة وضحاها ، يعنى أن له أهمية عالمية ، وأن الأدب يمكن أن يربح نقودًا .

أما البعض الآخر فقد راح ينظر إلى نفسه كأن الدور قادم عليه ، فلا شك أن جائزة نوبل التى تجاهلت العرب ثمانية وثمانين عامًا يمكن أن تلتفت قريبًا أو بعيدًا إلى كتاب آخرين .

والذى يهمنا فى هذا المضمار ، هو أن فوز نجيب محفوظ يدخل ضمن إطار إزاحة الستار عن أدب ظل سنوات طويلة مهضوم الحق ، لا يلتفت إليه أحد على المستوى العالمى ، ويمكن أن نقول إن اسم نجيب محفوظ قبل الجائزة كان مغمورًا شأنه شأن أغلب الأدباء الذين فازوا بالجائزة فى نفس العقد ، ومنهم بالطبع كانيتى وسيفرت وكلود سيمون ومن بعده ثيلا .. وقد اعترف نجيب محفوظ بذلك فى الخطبة التى ألقيت نيابة عنه فى الاحتفال التقليدى الذى أقيم فى استكهولم فى العاشر من ديسمبر ١٩٨٨ :

« سادتي .. أخبرني مندوب جريدة أجنبية في القاهرة بأن في لحظة إعلان اسمي مقرونًا بالجائزة ساد الصمت ، وتساءل كثيرون عمن أكون ، فاسمحوا لي أن أقدم لكم نفسي بالموضوعية التي تتيحها الطبيعة البشرية ، أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقًا ، أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية ، وثانيتهما عمرها ألف وأربعمائة سنة وهي الحضارة الإسلامية .

« قدر لي يا سادة أن أولد في حضن هاتين الحضارتين ، وأن أرضع لبنهما ، وأتغذى على آدابهما وفنونهما ، ثم أرتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة ، ومن وحي ذلك كله – بالإضافة إلى شجوني الخاصة – بدت عني كلمات أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة ، فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبرى ، فالشكر أقدمه لهم باسمي وباسم البناة العظام من مؤسسي الحضارتين » .

وتقول مجلة صوت اسكندنافيا (أبريل ١٩٨٩) إن الكثيرين قد فوجئوا عند إعلان بعض أسماء الفائزين بجائزة نوبل للآداب تحديدًا ، ولا غرابة إذ أن فوجئ الكثيرون حين أعلن اسم نجيب محفوظ فائزًا ، بالرغم من صدور رواية « زقاق المدق » بالسويدية في مطلع الثمانينات و« ثرثرة فوق النيل » عام ١٩٨٧ إضافة إلى الإعلان عن صدور ترجمات «ميرامار» و «حضرة المحترم» بقي اسمه غير معروف ، إلا من قلة من المتخصصين بشؤون العالم العربي من كتاب وصحفيين ومثقفين من الأوساط الجامعية .

ونجيب محفوظ المولود في حي الجمالية في ١١ ديسمبر ١٩١١ ، هو روائي في المقام الأول ، وإلى جانب الرواية كتب مجموعات قصصية وبعض المسرحيات القصيرة ، ولكن شهرته العالمية قامت على رواياته ، كما كتب السيناريو السينمائي ، وقد بدأت علاقته بالكتابة وهو في المدرسة الثانوية ، ولكنه لم يتمكن من نشر روايته الأولى « عبث الأقدار » إلا في عام ١٩٣٤ في « المجلة الجديدة » التي كان يرأس تحريرها سلامة موسى ، والذي منحه عددًا من النسخ مكافأة له بدلاً من النقود .

ومن المعروف أن محفوظ قد مر بأربعة مراحل إبداعية أساسية ، الأولى حين أصدر رواياته الأولى عن تاريخ مصر القديم وهى « عبث الأقدار » ١٩٣٩ ، ثم « رادوبيس » ١٩٤٣ ، و« كفاح طيبة » ثم راح يكتب عن الطبقات الشعبية التى ينتمى إليها ويعيش فيما بينها فى روايات حمل أغلبها أسماء أماكن فى أحياء مصر القديمة مثل « خان الخليلى » ١٩٤٥ و« زقاق المدق » ١٩٤٧ ، والثلاثية : « بين القصرين » ١٩٥٦ ، « قصر الشوق » ١٩٥٧ و« السكرية » ١٩٥٧ ، أما بقية الروايات المنشورة فى تلك المرحلة فهى ايضًا تدور فى نفس الأجواء مثل « القاهرة الجديدة » ١٩٤٦ ، و« بداية ونهاية » .

ويعتبر البعض أن « أولاد حارتنا » حالة إبداعية منفصلة من إبداع الكاتب ، تجمع بين الواقعية المباشرة والرؤية الفلسفية ، ثم جاءت مرحلة جديدة بدأت برواية « اللص والكلاب » عام ١٩٦١ ، وظهرت فيها روايات مثل « السمان والخريف » ١٩٦٢ ، و« الطريق »١٩٦٤ ، و« الشحاذ » ١٩٦٥ ، ثم « ثرثرة فوق النيل » ١٩٦٦ ، و« ميرامار » ١٩٦٧ ، و « المرايا » ١٩٧١ ، وفى هاتين الروايتين الأخيرتين بدا مدى اهتمام نجيب محفوظ بالشكل الروائى وأنه يجدد عمله ، وفى الأعمال التالية بدا مدى اهتمام الكاتب الكبير بإضافة الكثير من الصباغات الروائية الجديدة ، وخاصة فى « ملحمة الحرافيش » عام ١٩٧٧ التى تعتبر بمثابة إعادة صياغة متطورة للغاية من روايته « أولاد حارتنا » ، ثم تنوعت أشكال الإبداع التى قدمها محفوظ فى رواياته التالية لدرجة جعلت صياغة كل رواية تختلف تمامًا عن الأخرى ، بدا هذا فى « أمام العرش » و« رحلة ابن فطومة » و« صباح الورد » و« قشتمر » .

وحسب مجلة « اليوم السابع » – ٢٤ أكتوبر ١٩٨٨ – فإنه حتى منتصف الثمانينات ، كان بوسع الناظر فى مجمل إنتاجه أن يميز قسمين كبيرين : فى الأول فيهما يحاول تسجيل أحداث معاصرة وإبداء الرأى فيها ، وإن تنازل فى سبيل ذلك عن كثير مما يعرفه عن أحكام البناء وحبك التتابع وكتابة الصور شاعرية اللغة فى « عصر الحب » و« الباقى من الزمن ساعة » و« أمام العرش »

و« يوم قتل الزعيم ») ، وهو فى القسم الثانى يصرف إحدى عينيه عن الواقع ليفتحها على عمل من أعمال التراث ، ويروح يصب النبيذ القديم فى الأقداح الجديدة ، تلك التى وضعت على عينه الأخرى ، التابعة لتفاصيل الواقع وتحولاته (« ليالى ألف ليلة و« رحلة ابن فطومة » بوجه خاص) .

« إن صياغة مختصرة لمجمل إبداعه حتى منتصف الثمانينات ، يمكنك القول أنه ظل قادرًا على أن يأخذ عمله مأخذ الجد الكامل ، ومن ثم وجب أن نأخذه نحن كذلك . يعنيه أول ما يعنيه سرعة التعبير عن هذا الواقع بوتيرة تقارب وتيرة تغيره وتحوله » .

ويتحدث محفوظ عن أبداع الكاتب – كما كتب د . غالى شكرى فى مجلة أنباء الأسبوع « قائلاً » : كلما كبر الإنسان يصبح الاختيار أصعب ، فى الشباب لا نتأنى لأن العمر أمامنا ، أما الآن فندقق فى الاختيار ، والمسألة ليست كامنة فى شخصيات بعينها ، وإنما فى ما تضمره هذه الشخصيات من دلالات ، هل تناسب التجربة والإحساس والرؤية ؟ هذا هو المعيار ، فالكاتب يقابل أصنافًا لا حصر لها من البشر ، عالما يبدو من الصعاليك ، والصعلكة ليست طبقة اجتماعية ، فقد تجد مثقفًا صعلوكًا وجاهلاً صعلوكًا ، وقد تجد الفقير والغنى من الصعاليك ، المومس وليس القواد ، الحشاش وليس تاجر الحشيش ، السجين السياسى وليس الجلاد ، المتقاعد وليس المدير العام ، الفتوة وليس الجبان ، المهزوم وليس الوصولى .. إلى آخر هؤلاء الحرافيش أو الصعاليك كما تشاء » .

لاشك أن إيجابية حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب ذات بعدين . فمن ناحية تلقى الأكاديمية السويدية الضوء على أدب هام ومثير ، لترفعه إلى مستوى الاهتمام الدولى ، ومن ناحية ثانية فإن هذا الاختيار اعتراف بثقافة عريقة لا يعرف عنها معظم الغربيين إلا القليل .

كما جاء فى مجلة « صوت اسكندنافيا » السابق الإشارة إليها فإنه « لا نقاش فى أن محفوظ يتمتع بمنزلة مركزية فى الأدب العربى فى القرن العشرين ، فهو

يعتبر الروائى العربى الأول على مر العصور ، ولكنه بالرغم من ذلك يبقى غير معروف بعيدًا عن العالم العربى بشكل ملفت للنظر ، فلم تترجم من مؤلفاته إلى اللغات الأوربية إلا القليل القليل . رغم أن كتب محفوظ لا تقتصر فى كونها دليلاً تاريخيًا اجتماعيًا عن مصر ، بل إنها تشكل مدخلاً هامًا إلى كنوز الثقافة العربية العريقة .

وإذا كانت هذه الآراء قد كتبت عن نجيب محفوظ عقب فوزه بجائزة نوبل ، فإن الأيام قد أكدت أن نوبل قد فعلت سحرها المطلوب ، حيث بدأت ترجمة رواياته بشكل أكثر اتساعًا وشمولاً إلى لغات أوربية عديدة ، فمن المعروف أن القارئ الغربى يهتم بأن يطالع الآداب التى تحصل على جوائز أدبية ، ومثلما حدث مع ماركيث حين كان فوزه سببًا للإطلاع على أدب أمريكا اللاتينية ، فإن دور النشر العالمية قد بدأت بنجيب محفوظ ، حيث كتب عنه أندريه فالته فى جريدة لوموند – أول نوفمبر ١٩٩١ – إنه حكاء معجزة جعل من أحياء القاهرة الشعبية أماكن عالمية . وأسطورة خالدة .

« إنه يعرف الغرائز جيدًا ، دون أن يحاول تضخيم الأشياء ، ويكشف مرآة السنين عبر الأحداث ، والأحلام ، والرومانسية ، والصراعات ، والمناقشات اليومية ، يعرف كيف يعقد القصص البطولية ، ويرى الايماءات المقدمة .

وفى نفس المقال يقول الكاتب إن حى الجمالية فى القاهرة أصبح إطارًا محددًا لأعمال نجيب محفوظ وصنع من طبوغرافيته مادة روائية رائعة ، وجعله مزحوما بالبشر .

ونحن لن نقدم قصص محفوظ مثلما فعلنا فى قصص أدباء آخرين مجهولين بالنسبة لنا ، ولذا فإننا نترك للقارئ فرصة قراءة أعمال نجيب محفوظ فى نصوصها الأصلية ، وايضًا العودة إلى الكتب والمراجع الكثيرة التى كتبت عن كاتبنا الكبير طوال السنوات الأخيرة .

کامیلو خوسیه ثیلا - ۱۹۸۹

كاميليو خوسيه ثيلا

تطلع الناس فى بلادنا عام ١٩٨٩ إلى اسم الكاتب الذى فاز بالجائزة باحثين عن إجابة للسؤال المطروح ، وماذا بعد نجيب محفوظ ؟ وكانت الإجابة صدمة . ليس لأن الكاتب الأسبانى رئيسًا لجمعية الصداقة الإسرائيلية الأسبانية فى مدريد ، وليس أيضًا لأنه كاتب مجهول ، ولكن لأنه أقصر قامة بكثير ، على المستوى الأدبى ، من نجيب محفوظ ، وعندما نشير هنا بكلمة « مجهول » فإننا بذلك تعنى على المستوى العالمى ، فشهرة نجيب محفوظ تطبق آفاق العالم العربى قبل الجائزة .. كما أن ثيلا معروف جيدًا فى بلاده .. لكنه لم يكن مقروءا إلا فى إطار ضيق فى الدول الأوربية التى تحوطه ، وخاصة فرنسا ، باعتبارها أكثر الدول اهتمامًا بترجمة الآداب العالمية الأخرى .

وكاميلو ثيلا من أكثر الكتاب الذين فازوا بجائزة نوبل فى الثمانينات غزارة فى الانتاج ، كما أنه متنوع الإبداع ، فهو يكتب الرواية والشعر والدراسات الأدبية ، والمسرحية ، والقصص القصيرة ، كما كتب الكثير من أدب الرحلات ، ونشر قرابة أربعة وستين كتابًا ، ومع ذلك نال جائزة نوبل عن روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارته » المنشورة عام ١٩٤٢ ، والتى جاء فى حيثيات فوزه عنها بالجائزة ، حسبما نشر الدكتور حامد أبو أحمد فى مجلة المصور عقب فوز الكاتب بالجائزة : « إن الخصائص التى يتميز بها الموقف الإبداعى عند ثيلا متضمنة كلها فى الكتاب الذى اشتهر به ، وهو رواية « عائلة باسكوال دوارته » ، التى تقول عنها الأكاديمية إنها رواية خشنة ، فظيعة فى بعض المشاهد ، وبالرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها ، فقد كان لها صدى غير مسبوق ، لدرجة أنها تعتبر ، بعد الكيخوته (دون كيشوت) أكثر رواية مقروءة فى الأدب الأسبانى » .

وثيلا كاتب متعدد الثقافات ، فلاشك أن مولده فى الحادى عشر من مايو عام ١٩١٦ ، فى قرية أيريا فلافيا بشمال أسبانيا من أب أسبانى وأم إنجليزية قد أعطياه تنوعا ثقافيا ملحوظًا ، ويقول د . حامد أبو أحمد فى سيرة حياة الكاتب : « وعندما كان عمره تسع سنوات انتقلت الأسرة إلى مدريد ، ومنذ أن كان

صغيرًا كانت ثقته بنفسه تسبب له الكثير من المشاكل ، ولهذا طرد من أربع مدارس ، ولكن أسرته كانت تشجعه ، وتساعده فى أن يمضى إلى الأمام ، وعندما حصل على الثانوية التحق بكلية الطب فى جامعة مدريد (كومبلنسى) ولكنه قطع دراسته بهذه الكلية عندما وجد ميلاً إلى الأدب ، وكانت الحرب الأهلية الأسبانية قد بدأت عام ١٩٣٩ ، فانقطع عن الدراسة طوال فترة الحرب » .

بدأ ثيلا حياته الأدبية بروايته الأولى « عائلة باسكوال دوراته » وذلك إبان الحرب الأهلية الأسبانية ، وأيضًا إبان الحرب العالمية الثانية ، ويقول الناقد خوان كويتو إن هذه الرواية قد شكلت لأبناء جيله رؤية غريبة ، فهى بمثابة ترجمة أسبانية لأعمال الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه ، بدت هذه الرواية أقرب إلى سيرتنا الذاتية نحن أبناء هذا الجيل » ، وقد أجمع النقاد أن هذه الرواية بمثابة حدث ثورى فى الأدب الأسبانى المعاصر ، فى عصر ملىء بالروحية ، وكما يقول الناقد كويتو : إنها المرة الأولى بعد الحرب التى نرى فيها رواية تحكى مثل هذه الأشياء . تقطع كل صلة بما هو قديم وذو وتيرة واحدة ، إنها حدث أدبى أخذ فى الحسبان كل التجارب والثقافات الإنسانية خاصة الأوربية فى عصر كل من البير كامى واندرية جيد » .

كان ثيلا فى تلك الآونة قد التحقق بكلية الحقوق بعد أن ترك كلية الطب ، وبعد نجاح روايته الأولى نشر رواية أخرى تحمل عنوان « خيمة الراحة » فى العام التالى ، والتى يقول الناقد الفرنسى رفائيل سوين فى مجلة الأكسبريس (١٠ نوفمبر ١٩٨٩) ، إن الكاتب إستلهمها من رواية « الجبل السحرى » لتوماس من وهى رواية تدور أحداثها فى مصحة علاجية ، ويعتبر النقاد أن روايته « خلية النحل » هى درة أخرى له ، وقد نشرت عام ١٩٥٢ .. ومنعت من الرقيب لأكثر من عشر سنوات ، وقد تحولت فى عام ١٩٧٩ إلى فيلم سينمائى أخرجه ماريو كاميس ، وهى تصف مدينة مدريد فى عام ١٩٤٢ ، حول مجموعة من الأشخاص يترددون على مقهى تحمل اسم « اللذيذة » ، وهذه المقهى مأوى للعديد من الناس الذين يأتون بحثا عن الدفء من البرد ، أو الهاربين من الوحدة ، ومن همومهم الاجتماعية ، وفى هذا المكان الذى يردونه كخلية نحل يتحول إلى ملجأ

للأحلام ، البعض من الجالسين هناك سعداء ، والبعض الآخر حزانى ويحملون همومهم ، لاشك أن المقهى هذه بمثابة الوطن الملىء بالتناقضات ، والبيت الواحد الذى يؤمه ساكنوه ، وأبطال الرواية يصل عددهم إلى ستين شخصية بعضهم بالطبع يحمل افكارًا مناقضة للبعض الآخر ، ولاشك أن مثل هذه الشخصيات تحتاج لمتابعتها مفتاحًا خاصًا وضعه ثيلا فى مقدمة الطبعة الثانية من الرواية لفهم كل شخصية .

أما أشهر روايات الكاتب الأخرى فهناك : « السيد كلادويل يتحدث مع ابنه » ، و« لاكاتيرا » ١٩٥٥ ، ثم « سان كاميلو ١٩٣٦ » عام ١٩٦٩ ، و« مكتب الظلمات » ١٩٧٣ ، ثم « كريستوا ريزونا » عام ١٩٨٨ ، أما دواوينه الشعرية فهناك : « أغنيات القرية » عام ١٩٤٨ ، ثم « الدير والكلمة » عام ١٩٥٤ ، وفى الرحلات نشر مجموعة كبيرة من الكتب من أبرزها « رحلة إلى القرية » عام ١٩٤٨ ، و« الرحلة الأندلسية الأولى » ١٩٥٩ ، و « رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية » عام ١٩٦٧ ، ومن أشهر مجموعاته القصصية : « هذه السحب التى تمضى » عام ١٩٤٥ ، و« قائمة اكتشافات » ١٩٥٣ و« قصص تقرأ بعد دخول الحمام » عام ١٩٧٤ ، كما دون مذكراته فى كتب من أشهرها « الأصدقاء القدامى » عام ١٩٦١ .

وعن روايته « عائلة باسكوال دوارته » ، يهمنا أن نقتطف ماكتبه د . أبو أحمد فى مجلة المصور : « تتحول الرواية منذ الجريمة الأولى التى إرتكبها باسكوال دوارته إلى مأساة (تراجيديا) حقيقة ، مأساة أخرى ، ونجد الكاتب فى هذه الرواية أيضًا يكسر النسق التقليدى للفن الروائى ، ولا نجد أنفسنا أمام نص واحد ، وإنما نحن أمام سلسلة من النصوص تصل بنا إلى خاتمة محددة فى كل كتابات ثيلا ، وهى ضرورة خلق تحولات للقضاء على الطابع الدوجما طيقى (القاعدى الصارم) ، الذى ألقى على تاريخ أسبانيا ظلالاً قوية من العنف واللا تسامح ، ولهذا فإن ثيلا يعتبر من الكتاب الأوربيين ذوى الاتجاهات الراديكالية ، الذين يعبرون فى كتاباتهم عن رؤية راديكالية وأخلاق راديكالية ايضًا .

وباسكوال دوراته هذا مجرم رغم أنفه ، ومع ذلك فهو يعيش مجموعة من الجرائم ، لدرجة تصل به أن يقتل أمه ، والرواية مكتوبة بشكل قابض للنفس ، والعبارات فيها قاتمة اللون ، خانقة تعكس ما بنفس باسكوال ، وقد نجحت هذه الرواية أن تصنع جيلاً من الشباب ، أطلقوا على أنفسهم اسم هذا الإنسان الضائع ، مما دفع الناقد خوان كويتو أن يكتب فى جريدة ليبراسيون (٢٠ أكتوبر ١٩٨٩) قائلاً : « فى وسط سنوات الخمسينات بدأنا نحن ابناء باسكوال دوراته فى التعرف على ابينا – يقصد ثيلا – وكنت مشغوفًا بشكل خاص بهذا الرجل رغم كل التضادات التى جاءت فى روايته « خلية النحل » ، رغم تجاهل الصحافة الأدبية له ، لقد كان يحمل فوق ظهره ظل الخطيئة التى يرتكبها أعضاء الأكاديمية الأسبانية ، فقد كان هناك شيء ما عليه أن يحدث .

« فى تلك الأيام كان علينا أن نفتش فى اللغة ، وأن نكافح سيرًا على الأقدام ضد الرقيب ، والسياسة من أجل المجتمع والأدب ، ضد مجتمع اعتاد أن يدير ظهره للفنون الأصيلة ، وبدءا من سنوات الستينات ، أصبحنا شاهدًا على وسوسة حقيقية للغة أكثر عمقا ترغب فى التمرد التعبيرى وأن تجدد روح النص » .

وعن روايته « مكتب الظلمات » كتب ثيلا فى المقدمة : إنها قطعة من شغاف قلبى » ، وهى رواية فيها الكثير من التعبيرات الحسية الجريئة ، وبطل الرواية رجل عدمى ومتشائم ، يقترب من الموت ويعيش فى قذارة ، « نحن نولد من المخلفات الآدمية والبول » ، ويردد فى مكان آخر فى شكل أبيات شعرية :

لا أرغب الحياة ولا الموت ، ولا السلام ولا الحرب ، ولا أعيش ولن أعيش من أجل جهلى ، لن أموت أكثر مما أنا ميت .

ويقول الناقد جاك تيبول فى جريدة « كانزان ليتريز » : « اننا أمام رواية تمزج بين التاريخ اليونانى ، وتاريخ القديسين الكاثوليك ، والفلسفة الشرقية ، والغربية ، والأساطير المعاصرة ، هنا تنخر الأشياء فى العظام فينزعها الألم الممزوج بالمتعة ويتولد الواقع العبثى للموت » .

نادين جورديمر

ظلت نادين جورديمر تنتظر لأكثر من عشر سنوات حتى قفز اسمها إلى الفائزين بجائزة نوبل ، حيث ظهر اسمها كمرشحة فى قوائم النوبليين فى عام ١٩٧٩ لأول مرة ، وظل الاسم يتأرجح فى السنوات التالية فى القائمة دون أن يختفى ، ولذا فعندما حصلت على الجائزة لم يكن الأمر مستغربًا بالمرة ، وكل ما يمكن أن يفعله المرء حين سمع اسمها هو أن أطلق تنهيدة عميقة تعنى : « أخيرًا نادين جورديمر » .

هل حصلت نادين جورديمر على جائزة نوبل ككاتبة ذات مواقف سياسية ، أم على إبداعها بشكل عام ، لاشك أننا أمام كاتبة كرست من حياتها أكثر من ثلاثين عامًا للدفاع عن قضايا زنوج جنوب أفريقيا ، وظلت تعانى طويلاً كامرأة بيضاء من أسرة ثرية كما يحدث فى بلادها ، وخاصة فى المزرعة الضخمة التى تمتلكها أسرتها قريبًا من جوهانسبرج ، نحن أمام كاتبة بارزة فى جنوب أفريقيا من الأفريكانيين ، والأفريكانيون هم البيض فى جنوب القارة ، وذلك تمييزا لهم عن الزنوج أو الملونين ، وفى جنوب أفريقيا توجد مجموعة من الأدباء البيض حملوا مصائرهم فوق أعناقهم ، وراحوا يكتبون لمناهضة التفرقة العنصرية التى هى فى الأساس مكسبًا لهم ، ومن هؤلاء الأدباء هناك أندرية برينك ، وجيرمى كورتين وبريتن برتباخ ، وج . م . كوتيزى ، ود . م . فيلونكه . وفيما قبل كانت هناك البريطانية دوريس ليسنج التى عاشت هناك بين عامى ١٩٢٤ و١٩٤٩ وكتبت أكثر من رواية لمناصرة قضايا الملونين .

ونادين جورديمر من مواليد مدينة سبرنجر عام ١٩٢٣ ، وهى سليلة إحدى الأسر الهولندية الثرية التى جاءت إلى جنوب افريقيا فى القرن الثامن عشر ، وقد لاصق الثراء الأسرة حتى الآن ، فهى تمتلك المزارع ، ومناجم الذهب ، ويعمل لديها الكثير من العمال الزنوج ، وكان يمكن لفتاة حسناء ، وثرية أن تعيش فى الرغد الذى توفره لها أسرتها لكنها كما تقول : لعن الله قلب الكاتب فهو دائم

نادين جورديمر – ١٩٩١

البحث عن الحق ، « فهذه الحياة الثرية بدت لها مزيفة ، فكيف يمكنها أن تنام فوق فراش وثير ، وتأكل أشهى الأطعمة بينما الآخرون محرومون من أقل أسباب الحياة ، لذا فمنذ طفولتها راحت تتطلع إلى التناقض البين بين ما يدور داخل جدران منزلها الفخم ، والحياة البائسة التى يحياها هؤلاء الزنوج ، لذا فبدلا من أن تصادق ابناء جنسها من البيض الذين يرفلون فى أفخم الثياب ، نزلت إلى الفلاحين الفقراء تعيش معهم ، وتلبس من ملابسهم ، وتأكل مثلما يأكلون وتكرس نفسها وحياتها من أجلهم .

وبمتابعة قوانين الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا لابد أن ندرك مدى ما تعرضت له من اضطهاد ، ففى جنوب أفريقيا ، وحسب إحصاءات عام ١٩٨٦ ، فإن سكان جنوب افريقيا يبلغون ٢٨,٤ مليون نسمة منهم ١٩,٦٦ مليون من السود و٦,٨٩ من البيض و٤,٩ من الملونين .

تقول نادين جورديمر : لم أع مسألة السود سوى وأنا فى سن المراهقة ،فقد كنت طفلة ، ولم أكن أرى الأمر غريبًا ، كانت لدينا مربية سوداء ، وكنا نحبها جميعًا ، كنا لطفاء مع الغرباء ، ولكن أمى كانت تحترم المسافات بيننا ، فلكل واحد مكانه ، ومع ذلك لم تكن تعلق بشىء عندما ترانى أتناول قدحًا من الشاى معهم ، وهكذا تربيت فى الابارتهايد وفى المدرسة والأتوبيس والمكتبة ، الخ ، ثم بدأت فى التطلع حولى ، أرى الأشياء مختلفة ، هذه المناجم حيث الناس يعملون ، هذه السبائك الذهبية التى أصبحت أكثر شىء هام فوق الأرض الآن ، وهؤلاء الزنوج الذين يأتون من كل أنحاء افريقيا ليعملوا فى المناجم . خاصة ابناء الزولو ، الذين كان نصيبهم الخوف من النزول تحت الأرض ، كنت أذهب لرؤية الناس فى زى الرحيل ، أراهم « أجانب » إلى أن فهمتَ ذات يوم ماذا يعنى أجنبى .

وقد أدركت الصغيرة أن عليها ألا تخالط السود ، وأن على الزنوج أن يعيشوا فى معازل بعيدًا عن البيض ، وألا يدخلوا حدائقهم أو متنزهاتهم أو مدارسهم أو حتى نفس المحلات التى يشترون منها ، ورغم أن نادين أحست أن عليها أن

تدافع عن الزنوج ، فإنها لم تبدأ حياتها الأدبية إلا وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وحتى الآن وبعد قرابة ثلاثة وثلاثين عاما ، فإنها لم تقدم سوى تسع روايات وسبع مجموعات قصصية ومئات المقالات التى نشرتها فى الصحف دفاعًا عن قضايا السود ، ومن أهم رواياتها « عالم الغرباء » عام ١٩٥٨ ، و« شعب جولاى » عام ١٩٧٩ ، و« صاحب الحيازة » التى حصلت على جائزة بووكر عام ١٩٧٤ ثم « ابنة بيرجر » عام ١٩٨١ ، و« رسالة لابنى » عام ١٩٩٠ .

وقد حصلت نادين جورديمر على العديد من الجوائز الأدبية منها جائزة سميث التى تمنحها دول الكومنولث ، وجائزة برنجل التى حصلت عليها عام ١٩٦٩ .

وتجىء أهمية الكاتبة أنها كرست قلمها من أجل الدفاع عن الزنوج ، مؤمنة أن عليها أن تعمل على تحرير ٢٥ مليونًا من الزنوج فى جنوب أفريقيا ، فهى ترى أن الأثرياء حولها ليسوا سوى البيض ، بينما ممنوع على الزنجى أن يمارس ما يفعله البشر خارج حدود البلاد ، فعلية أن يترك منزله لفترة طويلة كى يعمل فى خدمة الأبيض ، فى المناجم والمزارع ، « كنا نرى الرجال فى الحوانيت ، فيبدون لنا كالأجانب ، وهم يضعون سوارات حول سيقانهم ، مثلما يفعل البيض مع الكلاب ، أما الصغار فليس عليهم أن يطرحوا الأسئلة على آبائهم ، ولكنى فيما بعد أدركت أن البيض هم الأجانب ، ون هذه ليست أرضهم » .

وقد وصل الأمر بالكاتبة أن تبرعت بقيمة جائزة نوبل (٣٩٠ ألف دولار) من أجل السود ، وكأنها بذلك تؤكد أن قلبها وقلمها لم يكونا فقط مع الزنوج ، بل ايضا وجدانها . وأهم حدث فى حياتها .

ومن المهم الإشارة إلى أن هناك أبعادًا سياسية واضحة واجتماعية لفوز الكاتبة ، ورغم ذلك فإن نادين جورديمر لم تمارس السياسة بشكل مباشر ، وإن كانت أحداث رواياتها مليئة برجال السياسة والمناهضين لنظام التفرقة العنصرية ، لذا كم حاولت أن تنقلب على بنود قوانين المطبوعات فى جنوب أفريقيا بأن تبتعد وتقترب من السياسة والممنوعات بدرجة تجعل إبداعها يصل إلى الناس ،

أما محاضراتها ومقالاتها فكانت أشد سخونة ، فهى ترى فى هذه المحاضرات أن السلطات السياسية تعانى من تناقضات ، فهى قد تسمح بنشر رواية ، وبعد ساعات من صدورها فى الأسواق تروح تصادر النسخ ثم تعتقل الكاتب ، وتصدر أمرًا بأن يلزم بيته عددًا من السنين ، وترى نادين جورديمر أن تعسف السلطات والقوانين كان من مصلحة الكاتب والكتاب ، فما إن يصدر كتاب جديد حتى ينفد فى ساعات ولا تستطيع السلطات أن تفعل شيئًا إزاء هذا الأمر .

ومن المعروف أن هناك سبلاً عديدة لنقل الكتب الممنوعة وتداولها بين الأيدى وقد تسربت أعمال الكاتبة ، وأقرانها ، إلى خارج البلاد وسرعان ما ترجمت إلى لغات عديدة .

فى أعمال نادين جورديمر هناك غالبًا امرأة تمر بمرحلة تحول ، فهى فى البداية تبدو أقل وعيًا ، أو أكثر سلبية لما يحدث حولها ، وما تلبث أن تتغير فتصبح ثورية متمردة ، تعى ما يحدث عن غبن فى هذا العالم ، فتصبح واحدة منه ، ومثل هذه المرأة موجودة فى رواية « عالم الغرباء » وتدعى أنا للووف ، وهى روزا بيرجر فى رواية « ابنة بيرجر » . ثم مورين سمالز فى رواية « شعب جولاى » . وفى كل امرأة من هؤلاء النساء جزء ، إن لم يكن كل ، من نادين جورديمر .

ومن الأهمية أن تكون المرأة بيضاء ، لأنه من الطبيعى فى ظل الظروف الاجتماعية أن يدافع الزنجى عن حقه ضد الأبيض ، أما الذى يسترعى الانتباه فهو أن يتحول البيض لمناصرة السود ، فأنا لووف فى « عالم الغرباء » تعيش فى مجتمع مغلق ، حتى إذا فتحت عينيها ذات يوم على ما يدور حولها فوجئت أن هناك ظلمًا بينا لم تكن تدرى عنه شيئًا بالمرة ، لذا فهى تقرر الرحيل إلى حدود البلاد كى تعيش هناك على هامش هذا الظلم الاجتماعى المتمثل فى قوانين التعسف العنصرية التى تبدو أشد ما يكون فى المدن الكبرى مثل جوهانسبرج .

لقد اختارت المرأة أن تذهب إلى منطقة نائية ، قاسية ، يعانى سكانها من شظف العيش ، ففى المدينة التى جاءت منها كان هم أغلب النساء من حولها

هو الحديث عن المساحيق والأزياء الجديدة والعطور التى سرعان ما تتبخر فى الجو ، والثرثرة الجوفاء . كان هذا الجو الثرى يبدو لامعًا وبراقًا للكثيرات من النساء . لكن « آنا » سرعان ما تكتشف زيفه ومدى ما يتسم به من هشاشة ، فهو أجوف لا أصالة فيه .

لذا اختارت « آنا » أن تنفى نفسها فى مكان بعيد بشكل اختيارى ، وهناك قريبًا من الحدود تلتقى برجل أبيض مثلها ، جاء أيضا من جوهانسبرج لمعرفة أسرار هذا المكان ، إنه يدعى « طولبى » ، وفى السادسة والعشرين من عمره ، جاء من قبل دار النشر التى يعمل بها ليعرف المزيد ، إنه إنسان اقرب إلى أورفيوس ، ما يجد أرضًا يهبط عليها ويستريح فوق أديمها ، ولذا فسرعان ما يجد ضالته فى « آنا » ، ويتعرف الاثنان على رجل أسود يدعى ستيفن سيتوليه جاء إلى هذا المكان لأنه لا يجد لنفسه المأوى المناسب ، ورغم ما يتسم به من ذكاء وحيوية ، إلا أنه يبدو غريبًا بهذه الملابس البالية التى يرتديها والتى لا تتناسب مع توقده .

وسرعان ما يتحول الرجل والمرأة ، يقول طولبى للفتاة انه جاء من مدينة واسعة يهتم فيها الرجال بحضور مباريات الجولف فى ملابسهم الأنيقة ، ولا يعرفون المعاناة التى يعيشها شخص مثل ستيفن ، ترك اسرته ، وجاء إلى الحدود بحثًا عما يقتاته ويرسل جزءا مما يكسبه إلى أبنائه ، ولكن هذا الفتات الذى يحصل عليه لا يجىء بسهولة فثمنه دائمًا هو الهوان .

يتلذذ الاثنان بمراقبة الرجل ، ويتعلمان منه الكثير ، ويتحدث أحدهما إلى الآخر أن مكانهما ليس الخلاص قريبًا من الحدود ، فهما بذلك أشبه بالنعامة التى تضع رأسها فى الرمال ، لذا يقرر أن العودة إلى جوهانسبرج . يقول لها : الله فى الكنيسة ، والعدالة فى المحكمة ، وكل أشكال الوجود وجدت لها حلاً منطقيًا .

ويعود الاثنان بالفعل إلى « معسكر الملائكة » . إنه المكان الذى يطلقه البيض على المناطق التى يسكنون فيها ، لكن ترى هل الملائكة بيض اللون ؟ وهل هناك ملائكة يتركون بشرًا يعانون من الجوع حولهم بمثل ما يحدث فى جنوب افريقيا ؟

أما رواية « ابنة بيرجر » فإن البطلة هنا هى روزا ، ابنة زعيم سياسى تم القبض عليه وإيداعه السجن وهناك مات ، هى إذن مثل ابنة أى زعيم مات ، قد تنظر لأبيها فى البداية على أساس أنه أب رقيق ، ورحيم ، فكل أب يحب أبناءه بنفس القدر ، وكل ابنة تنظر لأبيها على أساس أنه أفضل الرجال دون الاهتمام بمكانته الاجتماعية أو بدوره السياسى ، وروزا فتاة بيضاء أيضا ، فى عمر الزهور ، مجرد مراهقة صغيرة ، وأبوها جراح كبير يحظى باحترام الجميع ، إى أن السلطات تكتشف أن له دورًا فى مناهضة التفرقة العنصرية ، فهو يعالج الزنوج مجانًا ويناصرهم ، لذا يتم القبض عليه ويتم إيداعه السجن ، وبعد عدة أسابيع يجىء نبأ وفاته .

وبيرجر فى منظور الناس رجل تقدمى يؤمن بالعدالة الاجتماعية ، لذا أعلن حربه ضد التفرقة العنصرية ، وعقب وفاة ليونيل بيرجر فى السجن تجد ابنته نفسها فى موقف لا تحسد عليه ، فهى تختلف كثيرًا عنه ، وتؤمن بافكار غير أفكاره ، فهى تعيش حياة رغدة ، والفتيات مثلها يتحدثن عن أشياء تبدو لها جميلة ، لكن بعد وفاة الأب تتغير الأمور ، فالناس ينظرون إليها على أنها ظل ابيها وأنه يقف أمامها دائمًا مما يفقدها هويتها ، ورغم ذلك فإنها تعلن أنها مختلفة كثيرًا عن أبيها ، فهى لم تكن يومًا مناضلة سياسية ، ولا تحب أن تخرج من عالمها الوردى إلى السياسة ، ولا تنشد البطولة ، فهى ليست مصنوعة من أجلها ، وإذا سألها أحد عن أبيها ومنجزاته تتمتم فى حسرة : وماذا كسب ، لقد مات »

.

كل ما تحلم به روزا بيرجر ، أن تعيش تجربة عاطفية رقيقة مثل تلك التى عاشها أبوها مع أمها فى أول حياتهما : وسرعان ما تقع روزا فى حب شاب

وسيم ، لكنها تكتشف أنه كان صديقًا لأبيها يؤمن بأفكاره ، وعليها أن تقوم بممارسة اللعبة الحذرة كخطيبة لشاب مناضل ثورى ، مالبثت السلطات أن قبضت عليه وحبسته مثلما فعلت مع الأب ليونيل ، وحثا عن وسيلة للتخلص من هذا التناقض الذى يجثم على صدرها ، تكتب مجموعة من الرسائل لصديقها كونراد تحدثه فيها ، أنها تود أن تكون ، وأن عليها أن تبحث عن حريتها الذاتية بعيدًا عن سيطرة شبح أبيها ، لذا تقرر السفر إلى أوروبا .

وكى تحصل روزا على جواز سفر تقوم بتقديم تعهد بعدم مقابلة أى من الشخصيات السياسية أثناء سفرها ، وفى لندن تلتقى بزميل طفولتها « بعسى » وهو زنجى يناضل ضد التفرقة العنصرية ، ويكافح ضد تعسف السلطات البيضاء ، يحدثها أن آلاف الزنوج ماتوا دفاعًا عن القضية ، ولأنها ابنة الدكتور بيرجر ، فعليها أن تكون « شاهدًا » على أبيها ، يخبرها أنها لا تعرف قيمة ابيها الحقيقية وأنها بهذه السلبية إنما تبخسه حقه وقيمته التى لا يضاهيها شىء سوى الاستمرار فى المناداة بأفكاره ، ويطلب منها أن تكتب كتابًا عن أبيها ، فلا أحد يمكنه أن يفعل ذلك بنفس المستوى الذى يمكنها به ، كما يطلب منها أن تقوم بكتابة قصة حياته لإنتاجها فى فيلم تليفزيونى .

وشيئًا فشيئًا ، تتحول روزا بيرجر إلى امرأة أخرى ، تبدأ فى فهم حقيقة الأشياء ، ولذا فعندما عادت إلى جنوب أفريقيا تكون قد أصبحت شخصية جديدة ، تنظر إلى أبيها نظرة جديدة وتختار أن تصبح بالفعل « ابنة بيرجر » . فتكون امتدادًا له . تستكمل مسيرته . وترى جريدة « كانزان ليترير » ٧ نوفمبر ١٩٨٠ ، إن اختيار اسم روزا مقصود تمامًا ، فإن حياة ابنة بيرجر قريبة من تلك التى عاشتها المفاضلة الألمانية روزا لوكسمبورج .

أما روايتها « شعب جولاى » فتدور حول أسرة بيضاء تتكون من زوجين وثلاث أبناء يهربون من ثورة الزنوج ، ويقودهم فى رحلة الهروب التى تبلغ ٦٠٠ كيلو متر إلى مدينة جولاى ، دليل أسود ، وفى الرحلة يشاهدن فظائع

الثورة ، وفظائع البيض ضد السود من أجل إخماد ثورتهم ، وعندما يصلون إلى جولاى – وتعنى يوليو – لايجدونها قد تغيرت كثيرًا كما كان يزعم البيض بل هى مليئة بمظاهر التفرقة العنصرية .

وهذه الرواية ، تنتمى إلى أدب الخيال السياسى ، فأحداثها تدور فى المستقبل ، حيث تتصور الكاتبة ثورة الزنوج الأخيرة من أجل التحرير ، فالثورة شديدة الاشتعال ، والمدن تحترق ، والمطارات مغلقة ، ولم يعد هناك طريق للهروب والإفلات . الزوجان هما بامورد وموريين سمالز ، هى من أسرة نزحت أيضًا من جوهانسبرج ، أما الدليل الأسود فهو يعمل فى خدمتهم منذ خمسة عشر عامًا ، وفى الرحلة تبدو مدى الحاجة إلى الإقامة فى مسكن ، أو طعام نظيف ومياه نقية ، ولأن جولاى يسكنها بعض من أقاربهم فإنهم اختاروا التوجه إليها ، وعبر الإرهاق وحاجتهم إلى الراحة ، ورغبتهم فى الوصول ، يتحول الخادم إلى سيد الرحلة ، كلمته هى السائدة والنافذة ، ويدور صراع جديد بين الطرفين ، فالأب بامفورد لا يريد أن تنقلب الأمور وتتغير الموازين ، فرغم أن الخادم يقوم بمهمته على أحسن وجه ، مثل إعداد الشاى فى الصباح ، وتجهيز أماكن النوم فى المساء ، إلا أن سلوكه العام يؤكد أنه السيد ، حتى عندما نزل الوفد إلى قرية صغيرة يسكنها الزنوج ، تحس الزوجة موريين أنها لا يمكنها أن تواكب مهارة النساء من الزنوج فى الأعمال اليومية .

وعبر الإذاعة تجىء الأنباء عن انتصار ثورة الزنوج الذين يستولوا على ممتلكات البيض ، وبالطبع فإنهم استولوا على بيتهم فى جوهانسبرج : إنهم يطلقون الرصاص فى الشوارع وأصبح الخطر يحوط أطفالهم ، ومن الضرورى الدفاع عنهم لحمايتهم باسم العدل الذى ينادى به الرجل الأبيض فى مجتمع غير قابل للتصديق .

وهكذا ، يتأكد للأسرة البيضاء أن أمن الرجل الأبيض قد أصبح شيئًا من الماضى ، وأن الثورة قد غيرت وجه الحياة فى جنوب أفريقيا .

تقول نادين جورديمر فى حديث نشرته مجلة « مارى كلير » الفرنسية – مايو ١٩٨٧ – عن الظروف التى يعيشها الكاتب فى مجتمع جنوب أفريقيا : « نحن نعيش فى ظروف أشبه بتلك التى انحسر فيها الاستعمار ، حين كان المفكرون والمؤلفون يناهضون سياسة حكوماتهم ، ورغم ذلك فإنهم إبان لحظات الخطر يدافعون عنه ، نحن نحب بلادنا ، لكنها ليست بلادنا وحدنا ، فنحن فيها أقل عددًا » .

وفى نفس المجلة تقول ردًّا على سؤال حول إمكانية الحوار مع السلطة باسلوب آخر غير العنف : إنه موجود هناك منذ زمن طويل ، ولم يتوقف عن التضخم ، لقد بدأ فى عام ١٩٦٠ فى شاربفيل ، وانفجر داخل سويتو عام ١٩٧٦ ، وأصبح أشد قوة منذ عام ١٩٨٤ ، حين أعلن الدستور الجديد ، وعند متابعة هذه التواريخ سنلاحظ جيدًا على من تقع المسئولية الحقيقية للعنف : الحكومة .

هذا هو عالم سبعة من الروائيين الذين فازوا بجائزة نوبل ، وكما رأينا ، فإنهم يمثلون ثقافات مختلفة لكن الموضوع الغالب فى هذه الإبداعات هو الإنسان .